الفصل الأول

ما قبل البعثة

محمد رسول الله ﷺ .. هو : « محمد ، وأحمد ، ومحمود ، والماحى ، والحاشر ، والعاقب ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، ونبى الملاحم ، والشاهد ، والمبشر ، والنذير ، والضحوك ، والمتوكل ، والفاتح ، والأمين ، والمصطفى ، والخاتم ، والرسول ، والنبى ، والأُمىّ ، والقَيِّم ، ونبى التوبة ، والقاسم ، والعبد ، وعبد الله ، والمزمل ، والمدثر ، والشفيع ، والشافع ، والمشفع ، والحبيب ، والخطيب ، والحيى ، والخليل ، والداعى ، والسراج المنير ، وحريص عليكم ، ورؤوف رحيم ، والطيب ، وذو العزم ، والصاحب ، والصالح ، والسيد ، والقائد ، والإمام ، والحرز ، والنور ، والأزهر ، والأجود ، والشكور ، والحق المبين ، والكريم ، والعظيم ، والجبار ، والخبير ، والولى ، والمقدس ، وطه ، وياسين » [1] .

هذا ما ذكره الشيخ شرف الدين الطيبى فى « الكاشف » ، والقاضى عياض فى « الشفا » .. ويقول الشيخ النووى : قال الإمام الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى المالكى فى كتابه « عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى : « قال بعض الصوفية : إن لله تعالى ألف اسم ، وللنبى ﷺ ألف اسم .. فأما أسماء الله تعالى فهذا العدد حقير فيها ، وأما أسماء النبى ﷺ ، فلم أحصها إلا من

---

(١) الرصف ، لما روى عن النبى ﷺ من الفعل والوصف ، لمحمد بن محمد بن عبد الله العاقولى - نشر مكتبة التوعية الإسلامية - ص ١٠ - ١١

جهة الورود الظاهر بصيغة الأسماء البيِّنة ، فوعيتُ منها أربعة وستين اسماً » (١)

وعن جبير بن مطعم رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو اللّه بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى » (٢) .

* * *

● نسبه - صلى اللّه عليه وسلم :

محمد رسول اللّه ﷺ ، خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق ..

فَمَبْلَغُ العِلْمُ فِيهِ أَنَّه بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللّهِ كُلِّهِمِ (٣)

فلنسبه - صلى اللّه عليه وسلم - من الشرف أعلى ذروة ، وأعداؤه كانوا يشهدون بذلك ، وبهذا شهد له عدوه - إذ ذاك - أبو سفيان بن حرب بين يدى ملك الروم .

فأشرف القوم قومه .. وأشرف القبائل قبيلته .. وأشرف الأفخاذ فخذه .

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ ـنِ وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ (٤)

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « بُعِثتُ من خير بنى آدم قرناً فقرناً .. حتى كنتُ من القرن الذى كنتُ منه » (٥) .

وعن واثلة بن الأسقع رضى اللّه عنه قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » (٦) .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) ، (٤) من البردة للبوصيرى .. والثقلين : هما الإنس والجن .
(٥) رواه البخارى .
(٦) رواه مسلم والترمذى .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى ، عن المطلب بن أبى وداعة ، يقول صلى الله عليه وسلم : « .... إن الله خلق الخلق ، فجعلنى من خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلنى من خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلنى من خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلنى من خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » (١) .

ولابن هشام : « محمد - صلى الله عليه وسلم - ابن عبد الله ، ابن عبد المطلب (٢) ، بن هاشم (٣) ، بن عبد مناف (٤) ، بن قُصَىٍّ (٥) ، ابن كلاَب ، بن مُرَّة ، بن كَعْب ، بن لُؤَىٍّ ، بن غالب ، بن فهْر ، بن مالك ، ابن النَّضْر ، بن كِنَانة ، بن خُزَيمة ، بن مُدْرِكَة (٦) ، بن إلياس ، بن مُضَر ، ابن نزَار ، بن مَعَد ، بن عَدْنان ، بن أدّ (ويقال أُدَد) ، بن مُقَوِّم ، بن ناحور ، ابن تَيْرَح ، بن يَعْرُب ، بن يَشْجُب ، بن نابت (ويقال نبايوت) ، بن إسماعيل ، ابن إبراهيم (خليل الرحمن) بن تارح (٧) ، بن ناحور ، بن ساروغ ، بن راعو ، ابن فالخ ، بن عبير ، بن شالخ ، بن إرْفَخْشد ، بن سام ، بن نوح ، بن لَمْك ، ابن مَتُّوشَلَخَ ، بن أخنوخ (٨) ، بن يَرْد ، بن مَهْليل ، بن قَيْنَن ، بن يَانِش ، ابن شيث ، بن آدم صلى الله عليه وسلم » (٩) .

يقول ابن هشام : « حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن محمد بن إسحاق المطلبى بهذا الذى ذكرت من نسب محمد رسول الله ﷺ إلى آدم عليه السلام ، وما فيه من حديث إدريس وغيره » (١٠) .

ويصل ابن القيم - فى زاد المعاد - بالنسب الشريف إلى عدنان ، ثم يقول : « إلى هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسّابين ، ولا خلاف فيه البتة ، وما فوق

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) واسم عبد المطلب : شَيْبة .
(٣) واسمه عمرو .
(٤) واسمه المغيرة .
(٥) واسمه زيد .
(٦) واسمه عامر .
(٧) وهو آزر الذى ورد اسمه فى القرآن الكريم .
(٨) وهو إدريس النبى ، وكان أول بنى آدم أعطى النبوة وخط بالقلم ، والله أعلم .
(٩) السيرة النبوية ، لابن هشام ، نشر دار التحرير سنة ١٣٨٣ هـ : ١/١ ، ٢
(١٠) المرجع السابق .

عدنان مختلف فيه ، ولا خلاف عندهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام ، وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة ومَن بعدهم » .

ويقول الزهرى : « إن عبد الله - والد الرسول ﷺ - كان أجمل قريش ، فذُكِر لآمنة بنت وهب جماله وصفته ، وقيل لها : هل لك أن تزوجيه ، فأجابت ، فمضى به أبوه فزوَّجه إياها » .

وقال بعضهم : إن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش فنزل بالمدينة ، وهو مريض ، فتوفى ودفن بها ، وآمنة حامل بالنبى ﷺ .

وأما عبد المطلب - جده الأول - فاسمه « شيبة » لأنه كان فى رأسه شيبة ، ويقال له « شيبة الحمد » تفاؤلاً بحمد الناس له . كان مفزعاً لقريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور وشريفهم وسيدهم غير مدافع ، وكان يقال له « الفياض » لكثرة جوده ، و « المطعم لطير السماء » لأنه كان يلقى الطعام للطير والوحوش . وكان حليماً حكيماً ، حرَّم على نفسه الخمر ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام فوحَّد الله تعالى ، وتؤثر عنه سنن جاء الشرع بها .. منها الوفاء بالنذر والمنع من نكاح المحارم والنهى عن قتل الموؤدة وتحريم الزنا .. وغير ذلك . وكان وقوراً مهيباً ، روى أن رسول أبرهة لما دخل مكة ورآه خضع له وخرّ مغشياً عليه ، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه . ولما رآه أبرهة أكرمه وأجلسه إلى جنبه وتقدم إلى الترجمان بسؤاله عن حاجته ، فسأله الإبل ولم يسأله البيت ، فقال له أبرهة : أتكلمنى فى الإبل وتدع بيتاً هو دينك ودين آبائك ، فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وللبيت رب سيمنعه . قال أبرهة : ما كان ليمتنع منى .. وردّ الإبل فجعلها عبد المطلب هَدْياً للبيت .

وأما هاشم - جده الثانى - فاسمه « عمرو العلاء » لعلو مرتبته ، وهو أخو عبد شمس ، قيل : كانا توأمين ، وأن أحدهما ولد قبل صاحبه وأصبع له ملتصقة بجهة صاحبه فنحيت عنها فسال من ذلك دم ، فتُطيِّر من ذلك فقيل : تكون بينهما دماء ، ووقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ،

لأن هاشماً ساد قومه بعد أبيه عبد مناف ، فتكلف أمية أن يصنع صنعه ويذهب مذهبه ليشاركه فى المجد ويساهمه فى المكرمات فأعجزه أمره فعيَّرته قريش وقالوا له : مالك والتشبه بهاشم ، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة قال : فإنى أنافرك على خمسين ناقة تُنحر ببطن مكة والجلاء عنها عشر سنين ، فرضى وتحاكما إلى الكاهن الخزاعى بعسفان فقال : لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر ، فنصر هاشماً على أمية ، فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل وأطعم الناس ، وخرج أمية إلى الشام فلبث فيها عشر سنين ، وكان يقال لهاشم وإخوته « أقداح النضار » أى الذهب ، وإنما قيل له « هاشم » لأنه أول مَن هشم الثريد من العرب - أى ثرده وأطعمه المساكين .

قال الشاعر :

عمرو العلا ذو النداء لا يسابقه ... مـر السحـاب ولا ريح تجاريه

وقال آخر :

عمـرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجـال مكـة مسنتون عجاف

وقيل : إن أول مَن هشم الثريد وأطعمه الناس إنما هو قُصَىٌّ .

وكان هاشم بعد أبيه « عبد مناف » على السقاية - وهى سقاء الحجيج كله الماء العذب - والرفادة - وهى إطعام الطعام لمن لا سعة له من الحجاج ، فكان يمد لهم الأسمطة فى أيام الموسم - واتفق وهو بالشام أن أصاب أهل مكة قحط شديد ، فاشترى دقيقاً وكعكاً وقدم به مكة فهشم الخبز والكعك ونحر الجُزُر وجعل الثريد وأطعم الناس حتى أشبعهم ، وكان يقال له « سيد البطحاء » ، قال بعضهم : لم تزل مائدته منصوبة لا تُرفع فى السرَّاء والضرَّاء .

وأما عبد مناف - جده الثالث - فاسمه « المغيرة » ، وكان يقال له « القمر » لحسنه وبهائه ، وكان يقول فى كتاب له : أوصى قريشاً بتقوى الله جَلَّ وعلا ، وصلة الرحم . وكان الجد الرابع لعثمان بن عفان والتاسع للإمام الشافعى رضى الله عنهما .

وأما قُصَىٌّ - الجد الرابع - فاسمه « زَيد » ، وأمه فاطمة بنت معد بن سبل ، وقيل له « قُصَىٌّ » لأنه قصى - أى بَعُد - إلى قضاعة مع أمه . أخبرته أمه بأن كاهنة رأته صغيراً فقالت لها : إن ولدك هذا يلى أمراً جليلاً ، فلما انتهى إلى مكة مع حجاج قضاعة أكرمه قومه وقدَّموه عليهم لموضع نسبه ، وما رأوا فيه من آيات النبل فساد فيهم وكان أمر مكة بيد حُليل الخزاعى - وهو آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة من الخزاعيين - فلما مات تولى « قُصَىٌّ » أمر البيت واستلم مقادة الحكم بعد إخراج خزاعة من مكة لأن قريشاً أدنى إلى إسماعيل عليه السلام من خزاعة .

وقيل : إن حُليلاً هو الذى ولى قُصَيّاً الأمر لأنه زوج ابنته « حُبىً » .

وقيل : إن حُليلاً جعل ذلك لابنته فقالت له : لا قِبَل لى بفتح البيت وإغلاقه ، فأوصى به لأبى غُبَشان الخزاعى واسمه سليم بن عمرو .

فلما صار إليه أمر البيت وسدانة الكعبة ، اجتمع مع قُصَىٌّ بالطائف على شراب ، فأسكره قُصَىٌّ واشترى منه مفاتيح البيت بزق خمر ، فعيَّرته العرب فأنكر البيع وقال : إنما رهنتها له ، فتنازعوا ووقعت الحرب بين قُصَىٌّ وخزاعة فظهرت قُصَىٌّ على خزاعة وأجلوهم عن مكة وصارت لأولئك مفاتيح الكعبة لا ينازعهم فيها منازع . قال الشاعر فى هذا المعنى :

أبو غُبَشان أظلـــم من قُصَىٍّ ... وأظلـــم مـن بنى فِهر خزاعه

فلا تلحـــو قريشاً فـــى شراه ... ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وذهب المثل بتلك الصفقة فيقال : « أخسر من صفقة أبى غُبَشان » .

ولما أفضى أمر البيت إلى قُصَىٍّ وولى الحكم جمع القبائل فأنزلهم أبطح مكة ، وكان بعضهم فى الشعاب ورؤوس جبال مكة ، فتقسموا منازل خزاعة فسمى قُصَىٌّ لذلك مجمِّعاً . قال الشاعر :

أبوكم قُصَىٌّ كان يدعى مجمِّعاً ... به جمـــع اللّه القبائـــل من فِهْرِ

فكان قُصَىّ أول ولد لكعب بن لُؤَىٍّ أصاب مُلْكاً أطاعه به قومه ، فكانت إليه « سدانة » البيت فهو الذى يفتح الكعبة ويقفلها ، وكانت إليه « السقاية » فلا ينال أحدٌ بمكة الماء إلا من سقاته ، وكانت إليه « الرفادة » فلا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامه ، وكانت فى داره « الندوة » فلا تمضى قريش فى أمر من أمورها إلا قامت على تدبيره فى داره ، وكان لا يعقد لقريش « لواء » حربهم إلا هو . فهو صاحب الحجابة والسقاية والندوة واللواء والرفادة .

وكانت قريش تجعل من أموالها فى كل موسم خَرَجاً لقُصَىّ كان قد ضربه عليهم فيصنع به طعاماً للحجاج ينال منه مَن لا سعة له ولا زاد ، فأداؤهم الخراج واصطناعه الطعام للعافين من الحجاج هو « الرفادة » ، وقد صار ذلك عادة على قومه فى الجاهلية حتى قام الإسلام فكان بعض السلاطين يصنع كل عام الطعام بـ « مِنَى » لفقراء الحجاج .

وأما جده الخامس .. فاسمه « حكيم » - وقيل « عروة » - ولقب بـ « كِلاَب » لأنه كان يحب الصيد وأكثر صيده كان بالكلاب ، وهو الجد الثالث لآمنة بنت وهب - أمه صلى الله عليه وسلم - فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه .

وأما مُرَّة - جده السادس - فهو الجد السادس أيضاً لأبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، وفى « مُرَّة » أيضاً يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول ﷺ .

وأما كَعْب - جده السابع - فهو الجد الثامن لعمر رضى الله عنه . كان يجمع قومه يوم العروبة - أى يوم الرحمة - وهو يوم الجمعة فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبى ﷺ وينبئهم بأنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ويقول : سيأتى لحرمكم نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم . وقيل إنه كان يقول :

على غفلة يأتى النبى محمد فيخبر أخباراً صدوق خبيرها

قيل : إنه أول مَن قال :« أما بعد » ، فكان يقول : أما بعد ، فاسمعوا وافهموا واعلموا وتعلموا . وقيل له « كَعْب » لارتفاع شأنه فى قومه لأن

الكعب هو العالى المرتفع . وكان من شرف الموضع وعلو المحل بحيث كان القوم يُؤرِّخون بموته حتى عام الفيل ، فأرَّخوا به ثم بموت عبد المطلب حتى ظهر الإسلام وأرَّخ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بالهجرة .

وأما جده الثامن - فهو لُؤَىّ - والهمز فيه أكثر من تركه - وفى سبب تصغيره خلاف ، وأمه عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كِنَانة .

وأما جده التاسع فغالب ، وأمه ليلى بنت الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مُدْرِكة .

وأما فِهْر - جده العاشر - فهو جمّاع قريش ، وأمه جندلة بنت عامر . أسماه أبوه « فِهْراً » وقيل : هو لقب واسمه « قريش » ، وسمى بذلك لأنه كان يقرش - أى يلتمس خلة المحتاج فيسدها بماله ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم فسموا لذلك « قريشاً » ، وهو الذى أسر حسّان بن كلال حين أقبل من حِمْيَر وغيرهم من اليمن يبغون نقل حجارة الكعبة من مكة إلى اليمن حتى يتحول الحاج إليهم ، فخرج « فِهْر » هذا فى قبائل كنانة وخزيمة وأسد وغيرهم ، وكان رئيسهم ، فهزموا حُميراً بعد القتال الشديد وردوهم وأسروا ملكهم .

و « فِهْر » هذا .. هو الجد السادس لأبى عبيدة بن الجراح .

وأما مالك - جده الحادي عشر - فأمه عاتكة بنت عدوان ، وهو الحارث بن عمرو بن قيس ، ولقب بمالك لأنه ملك العرب وساد عليهم .

وأما النَّضْر - جده الثانى عشر - فاسمه قيس ، وأُمه بَرَّة بنت مُرّ بن أُدّ بن طابخة . قيل : إنه جمّاع قريش - وقد تقدم أن جمّاعهم فِهْر ، وعليه يكون الذين فوق فِهْر ليسوا من قريش .

وأما كِنَانة - جده الثالث عشر - فأمه عَوَانة بنت سعد بن قيس بن عيلان ، ودعى بكِنَانة لأنه كان « يكنّ » أمور قومه وكان جماع سرهم .

وأما خُزَيمة - جده الرابع عشر - فأمه سلمى بنت أسلم القضاعية ، وكان هذيل أخاه لأبيه وأمه ، وتغْلِب أخاه لأمه .

وأما مُدْرِكة - جده الخامس عشر - فاسمه عمرو ، وأمه ليلى بنت حُلْوان ، وقيل له « مُدْرِكة » لأنه أدرك كل عز وفخر اتسق لآبائه ، وكان يظهر فيه نور رسول الله ﷺ .

وأما إلياس - جده السادس عشر - فأمه الرَّباب بنت حَيْدة بن مَعَدّ ، وكان عند العرب عظيم القدر فكانوا يدعونه كبير القوم وسيدهم ، وكانوا لا يمضون أمراً بدونه وهو أول مَن أهدى البُدْن إلى البيت . وكان للعرب مثل لقمان الحكيم فى قومه . وجاء فى الأثر : « لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً » .

وأما مُضَر - جده السابع عشر - فأمه سَوْدة بنت عك ، وأخوه لأبيه وأمه إياد ، ويقال له « مُضَر الحمراء » لأنه أخذ من ميراث أبيه وترك الخيل لأخيه ربيعة ، وجاء : « لا تسبوا مُضَر وربيعة فإنهما كانا مؤمنين » ، ومن قوله : « مَن يزرع شراً يحصد ندامة » .

وأما نِزَار - جده الثامن عشر - فأمه معانة بنت جَوْشَم ، وكنيته « أبو ربيعة » وكان يُرَى نور النبى ﷺ بين عينيه ، وهو أول مَن كتب الكتاب العربى على الصحيح ، وفى نزار يجتمع نسب الإمام أحمد بنسبه صلى الله عليه وسلم .

وأما مَعَدٌ - جده التاسع عشر - فقد قيل له « مَعَدٌ » لأنه كان صاحب حروب وغارات ، ما حارب أحداً إلا وكان النصر معقوداً بلوائه .

وأما عَدْنان - جده العشرون - فهو آخر النسب المتفق عليه ، لا يختلف فيه النسَّابون ، فلا نخوض فيمن يليه لعدم الوثوق بصحته » ..

وصدق الشاعر [1] حيث يقول :

سنـــاؤهُ وسنـــاهُ الشَّمـــسُ طالعةً ... فالجِرمُ فى فلكٍ ، والضَّوءُ فى عَلَمِ [2]

قَـــدْ أخطـــأ النَّجْـــمَ ما نالت أُبُوتُه ... مـــن سؤددٍ باذخٍ فـــى مظهَرٍ سَنِمِ [3]

نُمُوا إليه ، فزادوا فى الورى شرَفاً ... ورُبَّ أصلٍ لفرعٍ فـــى الفخارِ نُمِى [4]

حَـــوَاهُ فـــى سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلهم ... نوران قاما مقام الصلْبِ الرَّحِـــمِ [5]

« فلئن كانت الحقيقة المحمدية قد سمت على جميع العوالم ، وعلت على كل الكائنات ، فإن نوره صلى الله عليه وسلم عم البرايا جمعاء ، وشاع فى الأرض والسماء ، كما يتصل نور الشمس بآفاق هذا العالَم السفلى ، وجرمها جار في مذهبها الرفيع سابح فى فلكها العلوى ، بل إن حقيقته - صلى الله عليه وسلم- أسمى وأرفع ، ونوره أعم وأنفع » .

يقول الشيخ سليم البشرى رحمه الله : « ... قد اجتمع لبيته - صلى الله عليه وسلم - من أسباب السيادة والمجد وكرم المنبت وشرف المحل ، ما لم يجتمع لبيت غيره ، واتسق لجدوده من المكرمات ما لم يسهم بمثله لعامة العرب - على كثرة قبائلهم وتعدد فروعهم - وحسبك أن يجتمع لقُصَىّ - جده الرابع - كل وجوه الرياسات التى تقسمتها العرب وتنازعتها القبائل ، لأنها كانت ملاك شرفهم وجماع سيادتهم وفخرهم ، فى الظفر بالخلة الواحدة منها أكرم الموضع وأعلا المنزلة ، حتى إن القبائل لتظل على طول الأدهار والأزمان تنتسب فى مجدها إليها وتصل بها حبلها ، وترتبط بها أصلها ، فما ظنك بها مجتمعة

---

(١) أحمد شوقى فى نهج البُردة .

(٢) سناؤه : رفعته ، وسناه : نوره ، والعلم - هنا : العالَم .

(٣) السؤدد : السيادة ، والباذخ : العالى ، والسنم : المرتفع ، وأبوته : أى ذوو أبوته ، والأبوة : المعنى المأخوذ من الأب كالأخوة والبنوة .

(٤) نموا : أى نسبوا .

(٥) السُّبُحات - بضمتين : مواضع السجود ، وسُبُحات وجه الله : أنواره .

كلها فى بيت واحد ، فى رجل واحد ، هو قُصَىٌّ جده الرابع - صلى اللّه عليه وسلم - يملكها عن الناس أجمعين غير مدافع .

ومع ما لآبائه - صلى اللّه عليه وسلم - من خطر القَدْر ونباهة الذكر ، وقد مرَّ بنا بعض ما وصلهم اللّه به من الشرف الرفيع ، والجاه العريض ، ونصيبهم فى المكرمات وما كان لهم من الحسب الحسيب والعِرق العريق والهمة القعساء والعزمة الماضية التى قصر عنها النجم الثاقب ، ولم تبلغها سابحات الكواكب ، ومع هذا كله فقد ازدادوا بنسبتهم إليه - صلى اللّه عليه وسلم - شرفاً على شرف ومجداً على مجد .

وإذا كانت الحال قد جرت بأن تشرف الفروع باشتعابها أصولها ، وتنبُه الأبناء بانتسابها إلى آبائها ، فالأمر هنا جاء على غير هذا الحكم ، وكان رسول اللّه ﷺ لآبائه وجدوده المنتمى فى الفخر والعِظَم ، والمنتهَى فى الانتساب إلى المجد والكرم .

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برســـول اللّه عدنان »

يقول القاضى عِياض : « أما شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه ، فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ، ولا بيان مشكل ولا خفى منه ، لأنه نخبة بنى هاشم ، وسلالة قريش وصميمها ، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قِبَلِ أبيه وأمه ، ومن أهل مكة أكرم بلاد اللّه على اللّه وعلى عباده » [1] .

يقول الرسول ﷺ : « إن اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .. صدق رسول اللّه ﷺ .

* * *

(١) انظر : « وضح النهج » للمرحوم الشيخ سليم البشرى ، على نهج البُردة نظم أمير الشعراء أحمد شوقى - نشر مكتبة الملك فيصل الإسلامية ص ٣٨ وما قبلها بتصرف .

● ابن الذبيحين :

عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما أنه قال : « سمعتُ رجلاً يقول للنبى ﷺ : يابن الذبيحين .. فضحك النبى ﷺ » ..

ثم قال معاوية : « إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم ، نذر لله إن سهَّل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده لله ، فسهَّل الله عليه أمرها .. فوقع السهم على عبد الله فمنعه أخواله بنو مخزوم وقالوا : افد ابنك . ففداه بمائة من الإبل ، وهو الذبيح الثانى .. وإسماعيل هو الذبيح الأول » .

ويروى لنا ابن هشام قصة نذر عبد المطلب ذبح ابنه فيقول :

« إن عبد المطلب بن هاشم كان قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن وُلِدَ له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ..

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء معه بذلك فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى . ففعلوا ، ثم أتوه ، فدخل بهم على « هُبَل » الذى فى جوف الكعبة - وكان هُبَل على بئر فى جوف الكعبة ، وكان عند هُبَل قداح سبعة ، كل قدح منها فيه : العقل - أى الدية - إذا اختلفوا فى العقل مَن يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، فإن خرج العقل فعلى مَن خرج حمله .. وقدح فيه « نعم » للأمر إذا أرادوه يُضرب به فى القداح ، فإن خرج قدح « نعم » عملوا به .. وقدح فيه « لا » إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القداح ، فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر .. وقدح فيه « منكم » ، وقدح فيه « ملصق » ، وقدح فيه « من غيركم » ، وقدح فيه « المياه » ، إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج عملوا به .

وكانوا إذا أرادو أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكّوا فى نسب أحدهم .. ذهبوا به إلى « هُبَل » وبمائة درهم وجزور ،

فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها ، ثم قرّبوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه .. ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب . فإن خرج عليه « منكم » كان منهم وسيطاً - أى خالص النَسب ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم : لا نسب له ولا حلف ، وإن خرج فيه شئ مما سوى هذا مما يعملون به « نعم » عملوا به ، وإن خرج « لا » أخّروه عامه ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى .. ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح .

يقول ابن هشام : « فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنىّ هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذى نذر ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه .

وكان عبد اللّه بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه .. كان هو والزبير وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عائذ .

وكان عبد اللّه أحب ولد عبد المطلب إليه ، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى - أى أبقى - وهو أبو رسول اللّه ﷺ ، فلما أخذ « صاحب القداح » القداح ليضرب بها ، قام عبد المطلب يدعو اللّه ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد اللّه ، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة .. ثم أقبل به إلى « أساف » و « نائلة » ليذبحه .. فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه .. فقالت له قريش وبنوه : واللّهِ لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه ، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟!

وقال له المغيرة بن عبد اللّه - وكان عبد اللّه ابن أخت القوم - : واللّهِ لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل ، وانطلق به إلى الحجاز فإن بها عرّافة لها تابع ، فسلها .. ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها فسألوها ، وقصّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أرادوا به ونذره فيه .. فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها .. فلما خرجوا عنها ، قام عبد المطلب يدعو اللّه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءنى الخبر .. كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل - وكانت كذلك - قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقدح .. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجى صاحبكم ..

فخرجوا حتى قدموا مكة .. فلما اجتمعوا على ذلك من الأمر ، قام عبد المطلب يدعو اللّه ، ثم قرّبوا عبد اللّه وعشراً من الإبل - وعبد المطلب قائم عند الكعبة يدعو اللّه عَزَّ وجَلَّ .. ثم ضربوا فخرج القدح على عبد اللّه ..

فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو اللّه عَزَّ وجَلَّ ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد اللّه ..

.... وما زالوا يزيدون من الإبل عشراً عشراً ، ويضربون القداح ، كل ذلك وعبد المطلب قائم عند الكعبة يدعو ربه فيخرج القدح على عبد اللّه حتى بلغت الإبل مئة .

ثم ضربوا ، فخرج القدح على الإبل .. فقالت قريش ومَن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .. فقال : لا واللّه حتى أضرب عليها ثلاث مرات .. فضربوا على عبد اللّه وعلى الإبل .. وقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو اللّه ، فخرج القدح على الإبل .. ثم عادوا الثانية ، وعبد المطلب قائم يدعو فخرج القدح على الإبل .. ثم عادوا الثالثة فخرج على الإبل .

عندئذ رضى عبد المطلب واطمأن قلبه .. فنُحِرَت الإبل ، ثم تُرِكت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع » [1] .

فكانت دية عبد الله بن عبد المطلب مئة من الإبل ، فى حين أن دية الرجل عندهم كانت عشراً ، وما ذلك إلا لمكان رسول الله ﷺ منه .

*

هذا ما كان من أمر الذبيح الثانى - عبد الله والد الرسول ﷺ ، وأما الذبيح الأول فقد كان جده إسماعيل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ..

ويقص الله تعالى علينا خبره فى سورة الصافات .. فبعد أن أخبرنا بما كان من أمر إبراهيم عليه السلام مع قومه قال : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ، وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [2] .

قال إبراهيم عليه السلام - بعد أن نجّاه ربه وأنقذه مما أراد به قومه من الكيد - : « إنى مهاجر من بلد قومى إلى الأرض المقدسة ، ومعتزلهم لعبادة الله تعالى ، ليثبتنى على الهدى ويعيننى عليه » ..

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام - نشر دار التراث العربى : ١/٩٤ - ٩٧ بتصرف .
(٢) الصافات : ٩٨ - ١١٣

ثم تذكر حنينه إلى الولد فنادى ربه : يارب ، هَبْ لى منك ولداً صالحاً من الذين يطيعونك ولا يعصونك .

فبشَّره الله تعالى بغلام يكون حليماً فى كبره .. فكان إسماعيل عليه السلام .

فلما بلغ الغلام الوقت الذى يطيق فيه معونة أبيه على عمله ، رأى إبراهيم - عليه السلام - الرؤيا فقال لابنه : يا بُنَىَّ ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ما الذى تراه ، وما رأيك فيه ؟

وإنما أخبره بذلك ، ليختبر صبره على امتثال أمر ربه ، ويوطن نفسه على الصبر على قضاء الله وحكمه .

أجاب إسماعيل أباه قائلاً : يا أبتِ ، افعل ما يأمرك به ربك من ذبحى ، وستجدنى إن شاء الله صابراً لأمر الله .

أسلم الأب أمره لله ، وأسلم الابن أمره لله .. امتثالاً لأمره تعالى ، وصبراً على بلائه .

فلما أسلما أمرهما لله تعالى ، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه .. وألقى إبراهيم عليه السلام وجيده على وجهه استعداداً للذبح .. ناداه الله تعالى : يا إبراهيم ، إنك قد صدَّقْتَ الرؤيا التى أريناكها فى منامك ، وأمرناك فيها بذبح إبنك .

وجزاه الله تعالى بأن جعل مكان ذبح ابنه ذبح كبش عظيم ، وأنقذ بذلك الغلام - عليه السلام - من الذبح ، وأبقى على إبراهيم عليه السلام - فيمن بعده إلى يوم القيامة - الثناء الجميل ، فلا يُذكر من بعده إلا بالذكر الجميل .

وكذلك يجزى الله تعالى الذين يحسنون فيطيعون أمره ويعملون فى رضاه .

ثم بشَّر - تعالى - إبراهيم عليه السلام بإسحاق نبياً صالحاً ، وبارك على إبراهيم وعلى إسحاق ، وجعل من ذريتهما المؤمن المطيع لله ، والكافر به الذى قد بان ظلمه ونفسه واتضح .

ويقال : إنه لما ادّعى إبراهيم عليه السلام محبة الله تعالى .. ثم نظر إلى ولده بالمحبة ، لم يرض حبيبه - تعالى - بمحبة مشتركة ، فرأى إبراهيم عليه السلام فى ليلة التروية كأن قائلاً يقول : « إن الله يأمرك بذبح ابنك » .. فلما أصبح تروى فى نفسه - أى تفكر - أهذا الحلم من الله تعالى أم من الشيطان ؟ .. ولذلك سمى « يوم التروية » .

فلما كانت الليلة التالية ، رأى ذلك أيضاً ، وقيل له : الوعد .. فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى - فسمى « يوم عرفة » .

ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فعزم على نحره - فسمى « يوم النحر » .

فلما تحقق - عليه السلام - أن ذلك الأمر من الله تعالى قال لابنه : يا بُنَىّ ، خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنحتطب لأهلنا .. وقبل الغلام وتبع أباه .

فقال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً .. فتمثل لهم فى صورة رجل ، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : لا !! قال : إنه ذهب به ليذبحه .

قالت : كلا .. هو أرأف به من ذلك !!

فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك !!

قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك ، فقد أحسن أن يطيع أمر ربه .

... فلم ينجح معها الشيطان .

ثم أتى الغلام فقال : أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟ . قال : لا !!

فقال : إنه يذهب بك ليذبحك . قال : ولِمَ ؟!

قال : زعم أن ربه أمره بذلك !!

فقال إسماعيل عليه السلام : فليفعل ما أمره الله به ، سمعاً وطاعة لأمر الله .

.... ولم ينجح معه الشيطان .

ثم جاء إبراهيم عليه السلام فقال : أين تريد ؟ واللّه إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك بذبح ابنك !!

فعرفه إبراهيم عليه السلام وقال : إليك عنى يا عدو اللّه ، فواللّه لأمضين لأمر ربى .

وإنما عرف إبراهيم عليه السلام أنه الشيطان لأنه لم يخبر أحداً برؤياه ، فمن أين لهذا الغريب معرفة ما رآه فى منامه ، أو ما عقد - عليه السلام - العزم على فعله ؟!

ويقول ابن عباس رضى اللّه عنهما : « لما أُمِرَ إبراهيم بذبح ابنه .. عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب .. ثم مضى لأمر اللّه تعالى » .

ولم ينل الشيطان من إبراهيم عليه السلام شيئاً ..

ثم إن إبراهيم عليه السلام أفضى إلى ابنه برؤياه فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؟

فقال إسماعيل عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وفى الخبر : أن إسماعيل قال لأبيه - عليهما السلام - : « يا أبت ، اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيئاً من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسْرِع مر السكين على حلقى ليكون الموت أهون علىَّ ، واقذفنى للوجه لئلا تنظر إلى وجهى فترحمنى ، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع .. وإذا أتيتَ أمى فأقرئها منى السلام » !!

فقال إبراهيم عليه السلام : نِعْمَ العون يا بُنَىَّ أنت على أمر اللّه ..

ثم إنه شمّر ، وأخذ السكين ، وأضجع ولده وقال : اللّهم تقبله منى فى مرضاتك ..

فأوحى الله تعالى إليه : « يا إبراهيم ، لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا .. فلما رددتَ قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك » .

وفداه الله تعالى بكبش عظيم ، وجده إبراهيم - عليه السلام - على مقربة منه فذبحه » (١) .

*

ويقول ابن القيم : « الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .. أما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - : « هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم .. فإن فيه : « أن الله أمر إبراهيم - عليه السلام - أن يذبح ابنه بكره » - وفى لفظ : « وحيده » - ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل - عليه السلام - هو بِكْرُ أبيه .

والذى غرَّ أصحاب هذا القول أن فى التوراة التى بأيديهم : « اذبح ابنك إسحاق » .. قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « اذبح بِكْرك ، ووحيدك » .

ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب .

ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله .. وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بَشَّر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبُشْرَى : ﴿ لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٢) .

---

(١) من وصايا القرآن الكريم ، للمؤلف ، ص ١٢٢ - ١٢٤ ، وانظر القرطبى فى تفسيره لسورة الصافات .

(٢) هود : ٧٠ - ٧١

فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة ، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب فى اللفظ الواحد .. وهذا ظاهر الكلام وسياقه ..

فإن قيل : لو كان الأمر كما ذكرتموه ، لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق فكانت القراءة : « وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبِ » : أى ويعقوب من وراء إسحاق .

قيل : لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشَّراً به ، لأن البشارة قول مخصوص ، وهى أول خبر سار صادق .. وقوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود .. فتكون البشارة ، بل حقيقة البشارة .. وهى الجملة الخبرية .

ولما كانت البشارة قولاً .. كان موضع هذه الجملة نصاً على الحكاية بالقول .. كأن المعنى : وقلنا لها من وراء إسحاق يعقوب ، والقائل إذا قال : بشَّرتُ فلاناً بقدوم أخيه وثقله فى أثره ، لم يُعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً .. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة .

ثم يُضعف الجر أمر آخر .. وهو ضعف قولك : مررتُ بزيد ومن بعده عمرو ، لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر ، فلا يفصل بينه وبين المجرور - كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور .

ويدل عليه أيضاً : أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. ثم قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [1] .

---

(١) الصافات : ١٠٣ - ١١٢

فهذه بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِر به .. وهذا ظاهر جداً فى أن المُبشَّر به غير الأول ، بل هو كالنص فيه .

فإن قيل : فالبشارة الثانية وقف على نبوته .. أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة .

قيل : البشارة وقعت على المجموع ، على ذاته ووجوده ، وأن يكون نبياً .. ولهذا نصب « نبياً » على الحال المقدَّر - أى مقدِّراً نبوته - فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضلة .. هذا محال من الكلام .. بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ..

وأيضاً .. فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جُعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جُعِل السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار تذكيراً بشأن إسماعيل وأمه ، وإقامةَ لذكر الله .

ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه .. ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً .. ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومَن تلقى عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة .

وأيضاً .. فإن الله سبحانه سمى الذبيح « حليماً » .. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه « عليماً » فقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً ، قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ (١) .. إلى أن قال : ﴿ قَالُوا لاَ تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٢) ، وهذا إسحاق بلا ريب ، لأنه من امرأته وهى المُبشَّرة به ، وأما إسماعيل فمن السرية ..

---

(١) الذاريات : ٢٤ - ٢٥ (٢) الذاريات : ٢٨

وأيضاً .. فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل فإنه وُلِدَ قبل ذلك .

وأيضاً .. فإن الله سبحانه أجرى العادة البَشرية أن يكون بِكْر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده .. وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووُهِبَ له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلاً ، والخلّة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها .

فلما أخذ الولد شُعْبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلّة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلّة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه ، فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ، ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول .. بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلّة ما يقتضى الأمر بذبحه ، وهذا فى غاية الظهور .

وأيضاً .. فإن سارة امرأة الخليل عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة ، فإنها كانت جارية ، فلما وُلِدَ إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة ، فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها ، ويسكنها فى أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته ورأفته .. فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله ، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها ؟!

فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟!

بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر

ولطفه بعد الشدة ، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البُعد والوحدة والغُربة ، والتسليم إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطئ أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة .. وهذه سُنّته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره .. قال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (١) .. وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢) .

فالذبيح الأول هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .. والذبيح الثانى هو عبد الله بن عبد المطلب واند الرسول ﷺ .. ولهذا ابتسم - عليه الصلاة والسلام- حين قال له الرجل : « يابن الذبيحين » .فكان تبسمه - صلى الله عليه والسلام - إقراراً للرجل على قوله .

سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد :

إن الذبيح هُديتَ إسماعيل ... نطق الكتـــاب بـذاك والتنزيل

شرف به خص الإلٰه نبينـا ... وأتى به التفســـير والتأويل

إن كنت من أُمته فلا تنكر له ... شـرف به قد خصــه التفضيل

* *

ويبدو أن التاريخ يأبى إلا أن يكرر نفسه !!

فكما تكررت قصة الذبح والفداء مع إسماعيل عليه السلام وعبد الله بن عبد المطلب جد الرسول ﷺ .

كذلك كان لعبد المطلب وجده الأكبر إسماعيل دور فى حفر زمزم .

---

(١) القصص : ٥

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد - لابن القيم - نشر المطبعة المصرية ومكتبتها : ١٥/١ ، وما بعدها .

وقد مرَّ بنا : أن عبد المطلب أعاد حفر بئر زمزم ، فلما غلبته قريش عليها ، نذر لئن وُلِدَ له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم للّه عند الكعبة ، وكانت قصة الفداء العظيم لعبد اللّه - والد الرسول ﷺ - على ما قدَّمنا .

بقى أن نذكر قصة إسماعيل - عليه السلام - مع بئر زمزم ، ليظهر الترابط بين الواقعتين .. فعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء .

ثم قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شئ ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى -أو قال : يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان

---

(١) إبراهيم : ٣٧

المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً .. فعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « يرحم اللّه أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً » .

قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها المَلَك : لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتاً للّه يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن اللّه لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً - أى يبحث عن الماء - فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً - أى رسولاً - أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .

قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « فألفى ذاك أُم إسماعيل وهى تحب الأُنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم .

وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم ... » [1] .

*

(١) من حديث رواه البخارى ، وانظر البداية والنهاية ، لابن كثير : ١٥٤/١ وما بعدها .

فلما مات إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ولى البيت بعده ابنه نبايوت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليه ، ثم ولى بعده « مِضاض بن عمرو الجرهمى » وبنو إسماعيل وبنو نبايوت من جدهم مِضاض بن عمرو وأخوالهم من جرهم - وهو قحطان بن عامر بن شالخ - وجرهم وقطوراء يومئذ أهل مكة ، وهما ابنا عم ، وكانا ظعنا من اليمن ، فأقبلا سيارة ، وعلى جرهم : مِضاض بن عمرو ، وعلى قطوراء السميدع - رجل منهم .

وكانوا إذا خرجوا من اليمن لم يخرجوا إلا ولهم ملك يقيم أمرهم . فلما نزلا مكة رأيا بلداً ذا ماء وشجر ، فأعجبهما فنزلا به ، فنزل مِضاض بن عمرو بمن معهم من جرهم بأعلى مكة بقيقعان فما حاز ، ونزل السميدع بقطوراء أسفل مكة بأجياد [1] فما حاز . فكان مِضاض يعشر مَن دخل مكة من أعلاها ، وكان السميدع يعشر مَن دخل مكة من أسفلها ، وكُلٌّ فى قومه لا يدخل واحد منهما على صاحبه .

ثم إن جرهم وقطوراء بغى بعضهم على بعض ، تنافسوا المُلْك بها ، ومع مِضاض يومئذ بنو إسماعيل وبنو نبايوت ، وإليه ولاية البيت دون السميدع . فسار بعضهم إلى بعض ، فخرج مِضاض بن عمرو مع قيقعان فى كتيبته سائراً إلى السميدع ، ومع كتيبته عُدُتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب ، يقعقع بذلك معه ، فيقال : ما سمى قيقعان [2] بقيقعان إلا لذلك .

وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال ، فيقال ما سمى أجياد أجياداً إلا لخروج الجياد من الخيل مع السميدع منه . فالتقوا بفاضح [3] ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فقُتِل السميدع ، وفُضِحت قطوراء .

ويقال : ما سمى فاضح فاضحاً إلا لذلك .

---

(١) موضع بمكة .

(٢) جبل بمكة .

(٣) موضع قرب مكة عند جبل أبى قبيس .

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المطابخ [1] واصطلحوا به ، وأسلموا الأمر إلى مضاض ، فلما جمع إليه أمر مكة فصار مُلكها له ، نحر للناس فأطعمهم ، فأطبخ الناس وأكلوا .

فيقال : ما سميت المطابخ بالمطابخ إلا لذلك ، وبعض أهل العلم يزعم أنها سميت المطابخ ، لما كان « تبع » نحر بها وأطعم ، وكانت منزله ، فكان الذى بين مضاض والسميدع أول بغى كان بمكة فيما يزعمون .

ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ، ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لختولتهم وقرابتهم ، وإعظاماً للحرمة أن يكون لها بغى أو قتال ، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم .

ثم إن جرهماً بغوا بمكة ، واستحلوا خلالاً من الحُرمة ، فظلموا مَن دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدَى لها ، فرُق أمرهم .

فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغبشان من خزاعة ذلك ، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة ، فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا ، فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة . وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً ، ولا يبقى فيها أحد إلا أخرجته ، فكانت تسمى الناسة [2] ولا يريدها ملك يستحل حُرمتها إلا هلك مكانه . فيقال : إنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تبك - أى تكسر - أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً .

ويقال : إن بكة اسم لبطن مكة ، لأنهم كانوا يتباكون فيها ، أى يزدحمون .

فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى بغزالى الكعبة وبحجر الركن ، فدفنها فى زمزم ، وانطلق هو ومَن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلكها حزناً شديداً .

---

(١) شعْب بأعلى مكة .

(٢) النس : الجذب ، والبس : التفتيت .

ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناف ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى ، وقريش إذ ذاك حلول وحرم ، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة ، فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حُليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى .

ثم إن قُصَىّ بن كلاب خطب إلى حُليل بن حبشية ابنته حُبى ، فرغب فيه حُليل فزوّجه ، فولدت له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العُزَّى ، وعبداً . فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه هلك حُليل فرأى قُصَىّ أنه أولى بالكعبة وبأمر الكعبة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشاً قرعة [1] إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده ، فكلّم رجالاً من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه .

وتزعم خزاعة : أن حُليل بن حبشية أوصى بذلك قُصَيّاً وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر ، وقال : أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها ، وبأمر مكة من خزاعة . فعند ذلك طلب قُصَىّ ما طلب .

ومن بعد قُصَىّ صار الأمر إلى ابنه عبد مناف ، ومن بعده إلى ابنه هاشم ، ومن بعد هاشم إلى أخيه المطلب بن عبد مناف ، ومن بعده إلى ابن أخيه عبد المطلب - جد الرسول ﷺ .

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم فى الحِجْرِ إذ أُتِىَ فأُمِرَ بحفر زمزم .

عن عبد اللّه بن زرير الغافقى ، أنه سمع علياً بن أبى طالب - كرّم اللّه وجهه - يحدّث حديث زمزم حين أُمِرَ عبد المطلب بحفرها ، قال :

قال عبد المطلب : إنى لنائم فى الحِجْرِ إذ أتانى آت فقال : احفر طيبة قال قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر برة . قال قلت : وما برة ؟ قال : ثم ذهب

---

(١) أى النخبة .

عنى ، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى فنمتُ فيه ، فجاءنى فقال : احفر المضنونة ؟ قال فقلت : وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى فنمتُ فيه فجاءنى فقال : احفر زمزم ؟ قال قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل [1] .

وروى أنه قيل لعبد المطلب حين أُمِرَ بحفر زمزم :

ثـــم ادع بالماء الروى غيـــر الكدر يسقـــى حجيـــج اللّه فى كل مبر

ليس يخاف منه شئ ما عَمَر [2]

فخرج عبد المطلب ، حين قيل له ذلك ، إلى قريش فقال : تعلموا أنى قد أُمرت أن أحفر لكم زمزم ، فقالوا : هل بُيِّن لك أين هى ؟ قال : لا ، قالوا : فارجع إلى مضجعك الذى رأيتَ فيه ما رأيت ، فإن يك حقاً من اللّه يبيِّن لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك . فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه ، فأُتى فقيل له : « احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام حافل - أى كثير - لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم ، وهى بين الفرث والدم » .

فزعموا أنه حين قيل له ذلك ، قال : وأين هى ؟ قيل له : عند قرية النمل ، حيث ينقر الغراب غداً .. واللّه أعلم أى ذلك كان .

---

(١) طيبة : لأنها للطيبين من نسل إبراهيم عليه السلام ، وقيل : برة لأنها فاضت على الأبرار، والمضنونة : ضُنَّ بها على غير المؤمنين ، ولا تنزف : لا يفرغ ماؤها ، ولا تذم : لا توجد قليلة الماء ، والأعصم من الغربان : الذى فى جناحيه بياض ، والمراد بقرية النمل : أى الأرض التى لا تحرث ولا تزرع .

(٢) الروى : الكثير ، والحجيج : جمع حاج ، والمبر : مناسك الحج ومواضع الطاعة ، وعمر : بقى .

فلما بُيِّن لعبد المطلب شأنها ، ودلَّ على موضعها ، وعرف أنه صُدق ، غدا ومعه ابنه الحارث - وليس له يومئذ ولد غيره - فوجد قرية النمل ، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين « أساف » و « نائلة » ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها . فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أُمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جده ، فقالوا : واللّه لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذُدْ عنى حتى أحفر ، فواللّه لأمضين لما أُمرت به . فلما عرفوا أنه غير نازع [1] ، خلوا بينه وبين الحفر ، وكفوا عنه ، فلم يحفر إلا يسيراً ، حتى بدا له الطى [2] فكبَّر وعرفوا أنه قد صدق ، فلما تمادى فى الحفر وجد فيها غزالين من ذهب - وهما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة - ووجد فيها أسيافاً قلعية [3] وأدراعاً ، فقالت له قريش : يا عبد المطلب ، لنا معك فى هذا شِرْكٌ وحق ، قال : لا ، ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم : نضرب عليها بالقداح [4] ، قالوا : وكيف تصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ، ولى قدحين ، ولكم قدحين ، فمَن خرج له قدحاه على شئ كان له ، ومَن تخلف قدحاه فلا شئ له ، قالوا : أنصفت . فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب ، وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوا صاحب القداح الذى يضرب بها عند هُبَل ، وقام عبد المطلب يدعو اللّهَ عَزَّ وجَلَّ ، فضرب صاحب القداح ، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش ، فضرب عبد المطلب الأسياف والأدراع باباً للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب . فكان أول ذهب حليته الكعبة - فيما يروون - ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج .

---

(١) غير نازع : أى غير كاف .

(٢) الطى : الحجارة التى طويت عليها البئر .

(٣) قلعية - نسبة إلى القلعة : جبل بالشام .

(٤) القداح : السهم الذى كانوا يستقسمون به .

ويروى أنه حين بدا لعبد المطلب طى البئر كبّر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشْركنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خُصصتُ به دونكم ، وأُعطيته من بينكم ، فقالوا له : فأنصفنا فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم مَن شئتم أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد « هذيم » ، قال : نعم ، قال : وكانت بأشراف [1] الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر . قال : والأرض إذ ذاك مفاوز . قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا مَن معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم ، وقالوا : إنّا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه ، قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت ، قال : فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركْب جميعاً ، قالوا : نِعْمَ ما أمرتَ به .

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : واللّه إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا : لعجز ، فعسى اللّه أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتحلوا ، فارتحلوا . حتى إذا فرغوا ، ومَن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، تقدّم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبّر عبد المطلب وكبّر أصحابه .

ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل

---

(١) أى ما ارتفع من أرضه .

من قريش ، فقال : هلم إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك فى زمزم أبداً ، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبينها » [1] .

ومن هنا نلمس التشابه التام بين البدايات والنهايات ..

فإسماعيل عليه السلام - جد العرب - كان سبباً فى ظهور زمزم ، وعبد المطلب - جد الرسول ﷺ - أعاد زمزم بعد أن طمرتها جرهم .

وإسماعيل - جد الرسول - هو الذبيح الأول ، وعبد الله - والد الرسول - هو الذبيح الثانى .. الأول فداه الله بكبش عظيم ، والثانى فداه بمائة من الإبل .

* * *

● الزواج المبارك (عبد الله وآمنة) :

مرّ بنا - فيما تقدَّم - كيف نذر عبد المطلب حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن وُلِدَ له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ..

ورأينا كيف جمع عبد المطلب بنيه حين توافوا عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وأخبرهم بنذره ، ثم كيف خرج القدح على عبد الله - والد الرسول - كما رأينا كيف فداه الله تعالى بمائة من الإبل . وكيف وفَّى عبد المطلب بنذره ونحر الإبل وتُرِكت ، لا يُصَدّ عنها إنسان ولا سبع ...

ثم إن عبد المطلب انصرف - بعد نحر الإبل - آخذاً بيد ابنه عبد الله يبغى له زوجاً من بنى زهرة ... وفى طريقه مرّ به على امرأة من بنى أسد بن عبد العُزَى

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - الصفحات من ٧٠ - ٩٢ بتصرف كبير .

- وهى أم قتال رقيقة بنت نوفل ، أخت ورقة بن نوفل بن أسد - وهى عند الكعبة .. فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد اللّه ؟

قال : مع أبى .

قالت : لك مثل الإبل التى نُحرت عنك وقَعْ علىّ الآن (!!) .

قال : أنا مع أبى ، لا أستطيع خلافه ولا فراقه .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة .. وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً ..

فرووا أنه دخل عليها حين أملكها - أى تزوجها - مكانه ... فوقع عليها ، فحملت برسول اللّه ﷺ ، ثم خرج من عندها ، فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالكِ لا تعرضين علىّ اليوم ما كنتِ عرضتِ علىّ بالأمس ؟

قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة .

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصّر واتبع الكتب - أنه سيكون فى هذه الأمة نبى .

« وعن أبى إسحاق بن يسار أنه حدّث : أن عبد اللّه إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وعمل فى طين له ، وبه آثار من الطين .. فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين .. فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما به من ذلك الطين ، ثم خرج - عامداً إلى آمنة - فمرّ بها ، فدعته إلى نفسها فأبى عليها وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد ﷺ ، ثم مرّ بتلك المرأة فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا ، مررتَ بى وبين عينيك غُرّة بيضاء ، فدعوتك فأبيتَ علىّ ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها .

وكانت تلك المرأة تحدّث : أنه مرّ بها وبين عينيه غُرّة مثل غُرّة الفرس ، قالت: فدعوته رجاء أن تكون تلك بى ، فأبى علىّ ودخل على آمنة فأصابها .. فحملت برسول اللّه ﷺ .

فكان رسول الله ﷺ أوسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً من قِبَل أبيه وأمه - صلى الله عليه وسلم » [1] .

وفى هذا يقول أمير الشعراء أحمد شوقى فى الهمزية النبوية :

بيت النبيِّيـــن الذى لا يلتقـــى ... إلا الحنائف فيـــه والحنفـاءُ [2]

خيـــرُ الأبوةِ حازَهم لَكَ (آدمٌ) ... دونَ الأنـــام ، وأحـــرزتْ حَوّاءُ

هـــم أدركـــوا عِزَّ النبوةِ وانتهت ... فيها إليـــكَ العِزَّةُ القعساءُ [3]

خُلِقَتْ لبيتك ، وهو مخلوقٌ لها ... إنَّ العظائـــمَ كفـــؤها العظماءُ

ويروى أن آمنة بنت وهب - أم رسول الله ﷺ - كانت تحدِّث : أنها أُتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها : إنكِ قد حملتِ بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : « أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » .. ثم سميه محمداً .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصْرَى من أرض الشام .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب - والد الرسول ﷺ - أن مات ، وأم رسول الله ﷺ حامل به .

فعن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قال : « خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة فى عير فى عيران قريش يحملون تجارات .. ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال : أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار .

فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة .. فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فقالوا : خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار ، وهو مريض .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - : ١/٩٧ - ٩٨

(٢) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام ، والجمع : حنفاء ، والمؤنث : حنيفة ، وجمعها : حنائف .

(٣) أى المنيعة الثابتة .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده « الحارث » ، فوجده قد توفى ودُفِن فى دار النابغة ، فرجع إلى أبيه فأخبره .. فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً .

ورسول الله ﷺ يومئذ حمل ، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة » [1] ؛ وقيل : كان عمره ثمانياً وعشرين سنة [2] .

وورث رسول الله ﷺ من أبيه : أم أيمن ، وخمسة أجمال ، وقطيع غنم ، وسيفاً مأثوراً ، وورقاً ، وكانت أم أيمن تحضنه .

* * *

● مولد الهادى :

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

وُلِدَ الهُـدَى ، فالكائنـاتُ ضياءُ ... وَفَـمُ الزَّمـانِ تبسُّـمٌ وثناءُ

الرُّوحُ والمـلأُ الملائـكُ حَـولَهُ ... للدِّيـن والدنيا به بُشَـراءُ [3]

والعرشُ يزهـو ، والحظيرةُ تَزْدَهى ... والمُنتهَى ، والسِّدْرَةُ العصماءُ [4]

وحديقـةُ الفرقـان ضاحكةُ الرُّبَا ... بالتـرجمانِ ، شَذِيَّـةٌ ، غنَّاءُ [5]

والوحْـيُ يقطرُ سَلْسَلاً من سلسلٍ ... واللـوحُ والقلمُ البديـعُ رُواءُ [6]

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ١/٢٠٥

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير : ١/٢٠

(٣) الروح الأمين : لقب جبريل عليه السلام ، والملأ : الأشراف ، والملائك : الملائكة ، وبشراء : جمع بشير .

(٤) يزهو : يشرق ، وسدرة المنتهى : يقال إنها شجرة نبق على يمين العرش .

(٥) الرُّبا : جمع ربوة وهى ما ارتفع من الأرض .

(٦) الرواء : ماء الوجه وحسن المنظر .

ثم يقول :

بِـــكَ بَشَّـــرَ اللّهُ السَّمـــاءَ فزُيِّنَت ... وتضوَّعت مِسْكا بِكَ الغبـراءُ (١)

وبـــدا مُحَيَّـــاكَ الذى قَسماتُـه ... حـــق ، وغُرَّتُـــه هُدًى وحَياءُ (٢)

وعليـــه مـــن نورِ النُّبوَّةِ رَوْنَقٌ ... ومـــن الخليـــل وهَدْيِه سِيماءُ (٣)

أثنى (المسيحُ) عليه خلف سمائه ... وتهلَّلت واهتزَّتِ (العذراءُ) (٤)

يـــومٌ يَتيهُ علـــى الزمان صَبَاحُه ... ومَســـاؤه (بمحمـــد) وَضَّـاءُ

الحـــقُّ عالـــى الركنِ فيه ، مُظَفَّرٌ ... فـــى المُلكِ ، لا يعلـو عليه لواءُ

ذُعِـــرت عروشُ الظالمين ، فزُلزِلت ... وَعَـــلَتْ علـــى تيجانهم أصْداءُ

والنارُ خـــاويةُ الجـــوانب حولَهُمْ ... خَمَدَت ذَوائبُهَا ، وغاضَ الماءُ (٥)

والآىُ تَتْـــرَى ، والخَـــوارقُ جَمَّةٌ ... (جبريـــلُ) رَوَّاح بها غَدَّاءُ (٦)

نِعْـــمَ اليتيمُ بَـــدَت مَخايلُ فضلِه ... واليُتـــمُ رزقٌ بعضُـــه وذكاءُ (٧)

ويقول فى قصيدته « نهج البُردة » :

سَـــرَتْ بشائـــرُ بالهادى ومـــولِدِه ... فـــى الشرقِ والغرب مَسْرَى النور فى الظلمِ

تخطَّفتْ مُهَجَ (٨) الطاغين من عربٍ ... وطيَّـــرت أنفُسَ الباغينَ من عجمِ

---

(١) تضوع المسك : انتشرت رائحته ، والغبراء : الأرض .

(٢) القسمة : بين الوجنتين والأنف ، وجمعها : قسمات .

(٣) الخليل : إبراهيم عليه السلام .

(٤) العذراء : السيدة مريم .

(٥) خمدت النار : سكن لهيبها ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى أعلى كل شئ .. والمراد بالذوائب هنا : ألسنة اللهب .

(٦) تترى : تتوالى ، ورواح غداء : أى يروح ويغدو .

(٧) المخيلة : المظنة .

(٨) المهج : جمع مهجة ، وهى : القلب .

رِبعت لها شُرَفُ الإيوان ، فانصدعت من صدمة الحق ، لا من صدمة القُدم [1]

* * *

● عن جابر وابن عباس رضى الله عنهما قالا : « وُلِد رسول الله ﷺ عام الفيل ، يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بُعِث ، وفيه عُرِج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات » [2] .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ وُلِد يوم الاثنين ، واستنبئ يوم الاثنين ، وخرج من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين ، ورفع الحجر يوم الاثنين » [3] .

● وعن أبى قتادة رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، ما تقول فى صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم وُلِدتُ فيه ، وأُنزِل علىّ فيه » [4] .

● وذكر السهيلى : أن مولده - صلى الله عليه وسلم - كان فى العشرين من إبريل - وهذا أعدل الزمان والفصول - وذلك لسنة ٨٨٢ لذى القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج .

ويقال : إن الطالع كان لعشرين درجة من الجدى ، وكان المشترى وزحل مقترنين ثلاث درج من العقرب - وهى درجة وسط السماء - وكان موافقاً من البروج « الحمل » .. وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل .. والله أعلم .

---

(١) ربعت : ذعرت وخافت ، وشرف : جمع شُرفة وهى ما يوضع على القصور ونحوها ، والقدم : جمع قدوم ..

روى أن شُرف الإيوان - وهو مأوى سلطان الأكاسرة - ارتجت وهوت ليلة مولده صلى الله عليه وسلم - لم تعمل فيها المعاول ، ولم تهدمها القُدُم ، بل تداعت من صدمة الحق ، وكانت هذه الحادثة إرهاصاً بأن مُلك الأكاسرة قد أوشك على الزوال ، وأنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ملكاً ، فملك عشرة فى أربع سنين ، وأربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه ، وبهذا انتهى ملكهم .

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه ، وهو المشهور عند الجمهور .

(٣) رواه أحمد . (٤) رواه مسلم .

والشائع : أنه - صلى الله عليه وسلم - وُلد فى الثالث والعشرين من شهر إبريل عام واحد وسبعين وخمسمائة الميلادية (٢٣ إبريل سنة ٥٧١ م) - عام الفيل - إذ كان قدوم الفيل - كما يذكر أبو جعفر الباقر رضى الله عنه - للنصف من المحرَّم ، ومولده صلى الله عليه وسلم بعده بخمس وخمسين ليلة .

* * *

● قصة أصحاب الفيل :

يقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (١) .

وكان من أمر الفيل : أن أبرهة الأشرم ، لما استقر له الأمر بأرض اليمن بنى القليس - وهى كنيسة لم يُرَ مثلها فى زمانها بشئ من الأرض .. ثم كتب إلى النجاشى : إنى قد بنيتُ لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

وقد استذل فى بناء هذه الكنيسة أهل اليمن ، وسخَّرهم فيها أنواع من السُخَر .. فكان مَن تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة .. وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة .. وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة .. وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس .. وجعل ارتفاعها عظيماً جداً ، واتساعها باهراً .

فلما تحدَّثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى ، غضب رجل من كنانة حتى أتى « القليس » فأحدث فيها ، ثم خرج فلحق بأرضه . فأُخبر أبرهة بذلك فقال : مَن صنع هذا ؟ فقيل له : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا .

---

(١) سورة الفيل كاملة .

فغضب أبرهه عند ذلك ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت .. ثم سار وخرج معه بالفيل .

وسمعت العرب بذلك فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت اللّه الحرام .

فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له « ذو نفر » فدعا قومه ومَن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت اللّه الحرام ، وما يريد من هدمه وخرابه .. فأجابه مَن أجابه إلى ذلك .

ثم عرض لأبرهة فقاتله فهُزِم « ذو نفر » وأصحابه ، وأُخِذ له « ذو نفر » فأُتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له « ذو نفر » : أيها الملك ، لا تقتلنى ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل . فتركه وحبسه عنده فى وثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له .. حتى إذا كان بأرض « خثعم » عرض له « نفيل بن حبيب الخثعمى » - من قبيلتى خثعم وهما شهران وناهس - ومَن تبعه من قبائل العرب .. فقاتله فهزمه أبرهة وأُخِذ له « نفيل » أسيراً ، فأتى به فلما هَمَّ بقتله قال له : أيها الملك ، لا تقتلنى ، فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم - شهران وناهس - بالسمع والطاعة ، فخلّى سبيله وخرج به معه يدله .

حتى إذا مرَّ بالطائف ، خرج إليه « مسعود بن معتب » فى رجال من ثقيف فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك مَن يدلك عليه ، فتجاوز عنهم .

وكان « اللات » بيت لهم بالطائف يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ..

ثم إنهم بعثوا معه « أبا رغال » يدله على الطريق إلى مكة .. فخرج أبرهة

ومعه « أبو رغال » حتى أنزله بالمغمس ، فلما أنزله به مات « أبو رغال » هنالك ، فرجمت العرب قبره ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس .

فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له « الأسود بن مقصود » على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم .. وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها .. فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومَن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة « حناطة الحميرى » إلى مكة ، وقال له : سَلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قُلْ له : إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئتُ لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم .. فإن هو لم يرد حربى فائتنى به .

فلما دخل « حناطة » مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة .

فقال له عبد المطلب : واللّه ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة .. هذا بيت اللّه الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن كان يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يخل بينه وبينه فواللّه ما عندنا دفع عنه .

فقال له حناطة : فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فسأل عن « ذى نفر » - وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له : يا ذا نفر ، هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيد ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ! ما عندى غناء فى شئ مما نزل بك ، إلا أن « أنيساً » سائس الفيل صديق لى ، فأرسل إليه وأوصيه بك ، وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك .. فقال : حسبى .

فبعث « ذو نفر » إلى « أنيس » فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل .

فكلم أنيس « أبرهة » فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال ، فائذن له عليك فيكلمك فى حاجته .. فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أجَلّه وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه .

ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنتَ أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه لا تكلمنى فيه ؟!

فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه .

فقال : ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك .

فرد على عبد المطلب إبله .

ويقال : إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة « يعمر بن نفاثة » سيد بنى بكر ، و « خويلد بن وائلة » سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم ذلك ..

فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُـــمَّ إن العبـــد يمـــ ـــنع رحله ، فامنـع رحالك

لا يغلبـــــن صليبهـــــم ومحالهم [1] غدواً محالك

إن كنت تاركهـــم وقبـــ ـلتنا فأمـــر ما بـــدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومَن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل .

فلما أصبح أبرهة ، تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبأ جيشه - وكان اسم الفيل محمود - فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل « نفيل بن حبيب » حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت ، فإنك فى بلد الله الحرام . وأرسل أذنه ، فبرك الفيل - أى سقط إلى الأرض - وليس من شأن الفيلة أن تبرك !!

ثم إن نفيلاً بن حبيب خرج يشتد حتى أصعد فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين [2] ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن [3] لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ثم وجهوه إلى مكة فبرك !!

وأرسل الله عليهم طيراً من البحر - أمثال الخطاطيف والبلسان [4] - مع كل

---

(١) أى قوتهم وبأسهم .

(٢) آلة معقوفة من حديد .

(٣) المحاجن : عصى معوجة قد يجعل فيها حديدة . وتبزغوه : أى ضربوه حتى أدموه .

(٤) هى الزرازير .

طائر منها ثلاثة أحجار يحملها .. حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت [1] .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن .. وأخذوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل .. وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة [2] ترشح قيحاً ودماً ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر .. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه .

وعن عبيد بن عامر قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل ، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار : حجرين فى رجليه وحجراً فى منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ، ثم صاحت وألقت ما فى رجليها ومناقيرها .. فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شئ من جسده إلا خرج من الجانب الآخر ، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

ويقال : إن السيل احتمل جثثهم فألقاها فى البحر [3] .

كانت واقعة الفيل - كما يقول السهيلى - أول المحرَّم سنة ٨٨٢ من تاريخ ذى القرنين .. وفى ذلك العام وُلد رسول ﷺ على المشهور ..

فكأنما كانت هذه الحادثة العظيمة إرهاصاً بأن تطهير البيت من الأوثان وإخلاصه لله تعالى وحده ، سوف يكون على يدى ذلك الوليد العظيم عندما يأذن الله بمبعثه ..

* * *

---

(١) يعنى : بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال .

(٢) أى الصديد .

(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - : ١/ ٣٠ - ٣٨ بتصرف .

● إرهاصات .. وبشريات :

أوشكت شمس التوحيد أن تشرق ويعم نورها الآفاق ، وبدت طلائع الفجر السابق لميلاد نبى الهدى تنتشر فى الأرجاء .

وتوالت الآيات والنبوءات تبشر باقتراب مبعث نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، حتى ترتفع راية التوحيد عالية خفاقة تملأ أركان المعمورة الأربعة ، وتتهاوى رموز الشرك وعبادة الأوثان والأنداد من حول الكعبة : أول بيت وضعه الله للناس فى الأرض .

فتنبأ ببعثه - صلى الله عليه وسلم - العرّافون والكهّان ، كما تنبأ به علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى .. وتوالت البشارات فى الكتب السابقة حتى تكون حُجّة على أصحابها يوم القيامة ..

● كان ربيعة بن نصر ملك اليمن ، بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هالته وفظع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى ، وفظعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ، قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا مَن عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كل الملك يريد هذا فليبعث إلى « سطيح » و « شق » [1] ، فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث الملك إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ، فقال له : إنى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فأخبرنى بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . قال :

---

(١) اسم سطيح : ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان ، وشق : ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أنمار بن نزار ، وأنمار أبو بجيلة وخثعم .

وقالت اليمن وبجيلة : أنمار : ابن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبايوت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ . ويقال : أراش بن عمرو بن لحيان بن الغوث . ودار بجيلة وخثعم يمانية .

أفعل ، رأيتَ حممه ، خرجت من ظلمه ، فوقعت بأرض تهمه ، فأكلت منها كل ذات جمجمة [١] .

فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فلتملكن ما بين أبين إلى جرش [٢] .

فقال له الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى هذا ، أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين .

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتَلون ويُخرَجون منها هاربين .

قال : ومَن يلى من ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه ، أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع . قال : ومَن يقطعه ؟

قال : « نبى زكى ، يأتيه الوحى من قِبَلِ العلى » .

قال : وممن هذا النبى ؟

قال : « رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون المُلك فى قومه إلى آخر الدهر » .

---

(١) الحممة : الفحمة . من ظلمة : من ظلام ، يعنى من جهة البحر ، أى خروج عسكر الحبشة من أرض السودان ، التهمة : الأرض ناحية البحر ، ذات جمجمة : أى صاحبة نفس .

(٢) الحرتين : الحرة أرض فيها حجارة سود . وأبين : موضع فى جبل عدن . جرش : قيل إنها مدينة باليمن .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : « نعم ، يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون » .

قال : أحق ما تخبرنى ؟ . قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك به لحق .

ثم قدم عليه « شق » ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ، فقال : نعم ، رأيتَ حممه ، خرجت من ظلمه ، فوقعت بين روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات نسمه .

فلما قال له ذلك ، وعرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ، إلا أن سطيحاً قال : « وقعت بأرض تهمه ، فأكلت منها كل ذات جمجمه » ، وقال شق : « وقعت بين روضة وأكمه ، فأكلت منها كل ذات نسمه » .

قال له الملك : ما أخطأتَ يا شق منها شيئاً ، فما عندك فى تأويلها ؟

قال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

فقال له الملك : وأبيك يا شق ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى ، أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان .

قال : ومَن هذا العظيم الشان ؟

قال : غلام ليس بدنى ، ولا مدن ، يخرج عليهم من بيت ذى يزن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

قال : « بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون المُلك فى قومه إلى يوم الفصل » .

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : « يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات » .

قال : أحق ما تقول ؟ قال : إى ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض [1] .

فوقع فى نفس ربيعه بن نصر ما قالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له « سابور بن خرزاذ » فأسكنهم الحيرة .. فمن بقية ولد ربيعة بن نصر « النعمان بن المنذر » ، فهو فى نسب اليمن وعلمهم : النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى ابن ربيعة بن نصر ، ذلك الملك - ويقال : النعمان بن المنذر بن المنذر [2] .

*

● وعن أبى بكر بن عبد الله بن أبى الجهم ، عن أبيه ، عن جده قال : سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال : بينما أنا نائم فى الحِجْر ، إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعتُ منها فزعاً شديداً ، فأتيتُ كاهنة قريش وعلىّ مطرف خز ، وجمتى تضرب منكبى ، فلما نظرت إلىّ عرفت فى وجهى التغير ، وأنا يومئذ سيد قومى ، فقالت : ما بال سيدنا قد أتانا متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شئ ؟ فقلت لها : بلى !

وكان لا يكملها أحد من الناس حتى يُقبِّل يدها اليمنى ، ثم يضع يده على أم رأسها ، ثم يذكر حاجته .. ولم أفعل لأنى كنت كبير قومى .

فجلستُ فقلت : إنى رأيت الليلة وأنا نائم فى الحِجْر ، كأن شجرة نبتت ، قد

---

(١) أمض : أى شك بلغة حمير ، وقال أبو عمرو : أمض : أى باطل .

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - ص ١٠ - ١٢ بتصرف .

نال برأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيتُ نوراً أزهر منها ، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ، ورأيتُ العرب والعجم ساجدين لها وهى تزداد كل ساعة عِظماً ونوراً وارتفاعاً ، ساعة تخفى ، وساعة تزهر .

ورأيتُ قوماً من قريش قد تعلقوا بأغصانها .

ورأيتُ قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخَّرهم شاب لم أرَ قط أحسن منه وجهاً ، ولا أطيب منه ريحاً ، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم .

فرفعتُ يدى لأتناول منها نصيباً فمنعنى الشاب .. فقلت : لمن النصيب ؟ فقال : النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك إليها .. فانتبهتُ فزعاً .

يقول عبد المطلب : فرأيتُ وجه الكاهنة قد تغيَّر ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ، ويدين له الناس .

ثم قال - يعنى عبد المطلب - لأبى طالب : لعلك تكون هذا المولود .

قال : فكان أبو طالب يحدِّث بهذا الحديث بعد ما وُلِد رسول الله ﷺ وبعد ما بُعِث .. ثم قال : كانت الشجرة أبا القاسم الأمين .. فيقال لأبى طالب : ألا تؤمن ؟ فيقول : السُّبة والعار !! [1] .

*

● وروى الخرائطى أنه « لما كانت الليلة التى وُلِد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شُرفة ، وخمدت نار فارس - ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة . ورأى المرزبان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادهم .

فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبَّر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مراذبته ، فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم ، فلما اجتمعوا عنده قال : أتدرون فيم بعثتُ إليكم ؟ قالوا : لا ، إلا أن يخبرنا الملك .

---

(١) رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة .

فبينما هم كذلك ، إذ ورد عليهم كتاب خمرد النيران فازدادوا غماً إلى غم ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله .

فقال المربذان : وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيتُ فى هذه الليلة رؤيا .. ثم قصَّ عليه رؤياه فى الإبل . فقال : أى شئ يكون هذا يا مربذان ؟ . قال : حدث يكون فى ناحية العرب .. وكان أعلمهم من أنفسهم .

فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر .. أما بعد : فوجِّه إلىّ برجل عالِم بما أريد أن أسأله عنه .

فوجَّه إليه بـ « عبد المسيح بن عمرو بن حيان » الغسانى .. فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال : لتخبرنى ، أو ليسلنى الملك عما أحب ، فإن كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم .. فأخبره بالذى وجَّه به إليه فيه . قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له « سطيح » . قال : فأته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره .

فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح .. فسلَّم عين وكلّمه ، فلم يرد إليه سطيح جواباً .

فأنشده شعراً ، فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، قد أوفى على الضريح .. بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المربذان .. رأى إبلاً صعابا ، تقود خيلاً عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها !!

يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نيران فارس : فليس الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت !!

ثم قضى سطيح مكانه ، فنهض عن المسيح إلى راحلته .

فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قاله له سطيح .. فقال كسرى : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً ، كانت أمور وأمور !!

فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه .. وكان آخر ملوكهم - الذى سُلِب منه الملك « يزدجرد بن شهريار بن أبرويز ابن هرمز بن أنوشروان » - وهو الذى انشق الإيوان فى زمانه - وكان لأسلافه فى المُلك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة [1] .

*

● وعن وهب بن منبه أن « بختنصر » بعد أن خرب بيت المقدس ، واستذل بنى إسرائيل بسبع سنين ، رأى فى المنام رؤيا عظيمة هالته ، فجمع الكهنة والحراز ، وسألهم عن رؤياه تلك فقالوا : ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها . فقال : إنى نسيتها ، وإن لم تخبرونى بها إلى ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم .

فذهبوا خائفين وجلين من وعيده ، فسمع بذلك دانيال - عليه السلام - وهو فى سجنه فقال للسجان : اذهب إليه فقل له : إن ههنا رجلاً عنده علم رؤياك وتأويلها .

فذهب إليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له ، فقال له : مامنعك من السجود لى ؟ فقال : إن الله آتانى علماً وعلّمنى وأمرنى أن لا أسجد لغيره . فقال له بختنصر : إنى أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود ، فأخبرنى عن رؤياى .

قال دانيال للملك : « أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم ، هذا التمثال العظيم البهى جداً وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد . صدره وذراعاه من فضة ، بطنه وفخذاه من نحاس . ساقاه من حديد . قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف . كنت تنظر إلى أن قُطِع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافة البيدر فى

---

(١) رواه محمد بن إسحاق .

الصيف ، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها . هذا هو الحلم » [1] .

ويفسر دانيال الرؤيا بقوله : « أنت أيها الملك ملك ملوك ، لأن إله السموات أعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً . وحيثما يسكن بنو البَشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلّطك عليها جميعاً ، فأنت هذا الرأس من ذهب . وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض . وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شئ ، وكالحديد الذى يُكسِّر تَسحق وتكسر كل هؤلاء . وبما رأيت القدمين والأصابع كلها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ، ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين . وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف ، فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قصماً . وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف . وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قُطِع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله العظيم قد عرَّف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين » [2] .

وعلى هذا فإن تعبير ذلك الحلم :

١ - الرأس من ذهب : المملكة البابلية (٥٨٦ - ٥٣٦ ق . م) .

٢ - الصدر والذراعان من فضة : المملكة الفارسية (٥٣٦ - ٣٣٠ ق . م) .

٣ - البطن والفخذان من نحاس : المملكة المقدونية (٣٣٠ - ٣٢٣ ق . م) .

٤ - الساقان من حديد : الإمبراطورية الرومانية (البطالسة) (٣٢٣ - ٣٠٢ ق . م) .

---

(١) سفر دانيال ٢ : ٢١ - ٢٦ (٢) سفر دانيال ٢ : ٢٧ - ٤٥

٥ - القدمان بعضهما من حديد والبعض من خزف : الدولة البيزنطية فى الشرق (٣٠٢ - ١١٦ ق . م) ، والمكابيون اليهود (١٦٦ - ٤٠ ق . م) ، والدولة الرومانية فى الغرب (٤٠ ق . م - ٦٣٣ م) .

٦ - الحجر الذى قُطع بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما : الأمة الإسلامية (٦٣٣ م - تاريخ فتح القدس على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه) [١] .

* * *

● وعن هذه الخوارق يقول الإمام البوصيرى - رحمه الله - فى بردة المديح :

أبَـانَ مَوْلِدُه عَـنْ طِيبِ عُنْصُرِه [٢] ... يَا طِيـبَ مُبْتَـدَإٍ مِنْـهُ وَمُخْتَتَمِ

يَـوْمٌ تَفَرَّسَ [٣] فِيهِ الفُـرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْ أُنْـذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ [٤] وَالنِّقَمِ

وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى [٥] وَهُوَ مُنْصَدِعٌ [٦] ... كَشَمْـلِ أَصْحَابَ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ [٧]

والنَّارُ خَامِـدَةُ الأَنْفَاسِ مِـنْ أَسَفٍ ... عَلَيْـهِ وَالنَّهْرُ سَاهِى العَيْنِ مِنْ سَدَمِ [٨]

وَسَاءَ سَاوَةَ [٩] أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا [١٠] ... وَرُدَّ وَارِدُهَا [١١] بِالغَيْظِ حِينَ ظَمِـى [١٢]

كَـأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالْمَـاءِ مِـنْ بَلَـلٍ ... حُزْناً ، وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ [١٣]

---

(١) محاضرات فى مقارنة الأديان ، للأستاذ إبراهيم خليل أحمد ، نشر دار المنار سنة ١٩٨٩ ص ٧٤ بتصرف .

(٢) عنصره : أصله ، يعنى ما أطيب بدايته ونهايته .

(٣) تفرس : ترسم وتعرف بالظن الصائب .

(٤) البؤس : العذاب والخوف .

(٥) الإيوان : بيت مستطيل ، وكسرى ملك الفُرس .

(٦) منصدع : متشقق .

(٧) ملتئم : مجتمع .

(٨) سدم : هم أو غيظ مع حزن .

(٩) ساوة : بلد من بلاد الفُرس بين الرى وهمذان .

(١٠) غاضت بحيرتها : جف ماؤها .

(١١) واردها : الآتى بها لبستقى .

(١٢) ظمى : عطش .

(١٣) تخيل البوصيرى - رحمه الله - أن النار والماء لفرط حزنهما على ملك كسرى انعكست طبيعتاهما ، فانقلب توهج النار بللاً ، وبلل الماء ضرماً .

وَالجِـــنُّ تَهْتِفُ وَالأَنْـــوَارُ سَاطِعَـةٌ ... وَالحَقُّ يَظْهَـــرُ مِـــنْ مَعْنَـــىً وَمِنْ كَلِمِ

عَمُـــوا وَصَمُّـــوا فَإِعْلاَنُ البَشَائِرِ لَمْ ... تُسْمِعْ وَبَارِقَـــةُ الإِنْذَارِ لَمْ تُشَـمِ [1]

مِـــنْ بَعْـــدِ مَا أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ ... بِأَنَّ دِينَهُـــمُ المُعْـــوَجَّ لَمْ يَقُـــمِ

وَبَعْـــدَ مَا عَايَنُوا فِي الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ ... مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ [2] مَا فِي الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

حَتَّـــى غَـــدَا عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ ... مِـــنَ الشَّيَاطِيـــنِ يَقْفُـــو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

كَأَنَّهُـــمْ هَـــرَباً أَبْطَالُ أَبْرَهَـــةٍ [3] ... أَوْ عَسْكَـــرٌ بِالحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِي

نَبْـــذاً بِهِ [4] بَعْـــدَ تَسْبِيحٍ بِبَطْنِهِمَا ... نَبْـــذَ المُسَبِّـــحِ [5] مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمِ

● ويقول أمير الشعراء أحمد شوقى فى نهج البردة :

سَـــرَتْ بشائِـــرُ بالهادى ومـــولِدِه ... فَى الشرقِ والغربِ مَسْرَى النور فى الظُلَمِ

تخطَّفتْ مُهَـــجَ [6] الطَّاغين من عربٍ ... وَطِئَـــرت أنفُسَ الباغيـــنَ مـــن عَجَمِ

رِيعتْ لها شُرَفُ الإيوان ، فانصدعت ... من صدمة الحق ، لا من صدمة القَدَمِ [7]

---

(١) لم تشم : لم تر .

(٢) وفق : أى موافقة فى سقوطها لسقوط الأصنام فى الأرض .

(٣) أبرهة : كان ملكاً للبمن من قِبَل نجاشى الحبشة قبل البعثة ، أراد هدم الكعبة فأهلكه الله وجيشه بطير ألقت عليهم حجارة ، وقصته مذكورة فى القرآن .

(٤) نبذاً به : أى رمياً به - أى بالحصى .

(٥) المسبح : المراد به : يونس عليه السلام ، إذ قال : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فنبذه الحوت الذى كان قد التقمه من أحشائه . والمعنى أن آية نجاة محمد ﷺ من قومه - إذ بيتوا قتله ، وذلك برميهم بالحصى بعد تسبيحها فى راحتيه ، وحجب الله عنه أبصارهم - كآية نجاة يونس عليه السلام بنبذ الحوت إياه عند تسبيحه فى بطنه .

(٦) المهج : جمع مهجة وهى دم القلب .

(٧) ريعت : أى ذعرت وخافت ، وشُرَف : جمع شرفة وهى ما يوضع على أعالى القصور ونحوها ، والقُدُم : جمع قدوم .

أُتيتَ والناسُ فَوْضَـــى لا تَمُـــرُّ بهم ... إلاَّ علـى صَنَمٍ ، قد هامَ [1] فى صَنَمِ

والأرض مملـــوءةٌ جـــوراً ، مُسَخَّرَةٌ ... لكـــلِّ طاغيـــةٍ فِـــى الخَلْق مُحْتَكِمِ

مُسَيْطِـــرُ الفُرْسِ يَبغى [2] فى رعيّته ... وقيصـــرُ الروم مـــن كِبْـــرٍ أصمُّ عَمِ

يُعـــذِّبان عبـــادَ اللّهِ فـــى شُبَـــهٍ ... ويذْبحَـــان كمـــا ضحِّيَت بالغَنَـــمِ

والخلـــقُ يَفْتِـــك أقواهم بأضعفهم ... كاللّيث بالبَهْمِ ، أو كالحوتِ بِالبَلَمِ [3]

ورُوِى فى غير موطن أن البُشْرَى بمولده صلى اللّه عليه وسلم شاعت فى الأرض والسماء ، واتصلت بجميع الكائنات .

كما أن العلامات التى دلّت على مولده صلى اللّه عليه وسلم قد روّعت أهل السطوة والظلم من عرب وعجم ، واعتصرت قلوبهم وأطارت نفوسهم فَرَقاً . وذلك لما علموا من اقتراب الساعة التى يُملَكون فيها عن الناس وتُغَل فيها أيديهم عن ظلم العباد ويُحاسَبون على ما أسرفوا ، ويؤخذون بما اقترفوا ، وأن على الباغى تدور الدوائر .

فشُرَف الإيوان - وهى مثوى سلطان الأكاسرة ومظهر سطوتهم وبأسهم - قد ارتجت وهوت ليلة مولده صلى اللّه عليه وسلم لم تعمل فيها المعاول ولم تهدمها القُدُم ، بل تداعت وخرّت من صدمة الحق المبعوث به صلى اللّه عليه وسلم للباطل الذى فيه أهلها : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [4] .

روى البيهقى وأبو نعيم والخرائطى وابن عساكر خبر ارتجاج الإيوان وسقوط أربع عشرة شُرْفة منه . وقال ابن حجر فى شرح الهمزية : ومن عجائب ولادته

---

(١) هام : يهيم هياماً ، والهيام : شدة الوجد . (٢) البغى : هو التعدى .

(٣) البَهْم : جمع بهيمة وهى ولد الضأن والمعز ، والبلم : صغار السمك .

(٤) الأنبياء : ١٨

صلى الله عليه وسلم انهدام إيوان كسرى - أى انشقاقه بيِّناً آل به إلى خرابه - ولولاه ما تداعى البناء - مع ما هو عليه من العظم والإحكام الذى يظن به أن لا تهدمه إلا نفخة الصور ، فإذا هو قد تحرك وسقط منه أربع عشرة شُرْفة للدلالة على نبوته ، وأنه لا عزّ يبقى لأمر مع عزه .

وسر كونها أربع عشرة : أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ، فملك عشرة فى أربع سنين ، وأربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه ، وبذلك انتهى مُلْكهم .

بُعِث - صلى الله عليه وسلم - والناس فى جاهليتهم الجهلاء لا يؤخذون بنظام ، ولا يجرون فى أمورهم على حكم معقول ، بل قد فسدت فطرهم وافتتنت عقولهم إلى حد العكوف على الأصنام واتخاذها للعبادة واستكفائها الضر والأذى . ومَن كان هذا شأنه فى ضعف العقل وجمود الفكر وعدم التمييز بين النافع والضار ، كان هو والحجر الذى يعبد بمنزلة سواء ، فذلك قوله : « إلاَّ على صَنَمٍ قَدْ هامَ فى صَنَمِ » .

ولقد كان الناس فى كل أرض كأنهم فى دار حرب يستعر لهيبها من القتل والفتك والسلب والنهب . دع وأد البنات وهتك الحرمات . وكان كل ملك طاغية فى قومه ، ظلاَّماً فى حكمه ، يأمر ولا راد لأمره ، ويقضى بالجور ولا دافع لقضائه ، اللّهم إلا أفراداً قلائل يسنحون فى عرض التاريخ سنوحاً فيخطر عدلهم فى خلال الظلمات المتكافئة ، خطْرة البرق بدا ثم اضمحل .

وكذلك كانت الحال فى دولة الفُرْس عند مبعثه صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت الفوضى فى بيت الملك والظلم فى الرعية بيد القائم المتسلط عليه . كما كانت الحال فى دولة الروم أدهى وأمر ، فقد كانت قياصرتهم أهل غطرسة وجبروت ، قد أبطرتهم النعمة وأعماهم الاختيال وأصمتهم الكبرياء ، فلا يرون لمخلوق حقاً عليهم ، بل يعتقدون أن الخلق مسخر لأمرهم ، وأن الناس ما كانوا إلا ليجرى عليهم عسفهم وظلمهم .

وإنما اختص الشاعر بالذكر دولتى فارس والروم لأنهما كانتا أعرف دول

الأرض وأقواها فى ذلك الحين ، ولأنهما كانتا أشد من غيرهما علامة وأقرب جواراً لجزيرة العرب التى بُعِث فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

وقد فصَّل الشاعر وجوه الظلم الذى كان منتشراً فى ذلك الزمان ، وأن تعذيب الناس كان يجرى على الشُبَه والأوهام ، وأن أرواح العباد كانت تُزهق بالوشايات والسعايات ، وينطلق سيف الظالم بالقتل فى الناس لأوهن الأسباب كما تنطلق سكين القصاب بالذبح فى الغنم يوم التضحية .

وشأن الناس أنه متى أطلقوا ولم يكفهم وازع من دين أو سلطان ، غلبت عليهم فطرتهم الحيوانية فسطا كبيرهم بصغيرهم ، وفتك قويهم بضعيفهم ، كما يفترس الليث ضعاف الحيوان ، وكما تأكل كبار السمك صغارها[1] .

هكذا كان شأن الناس حين بعث الله رسوله ﷺ .

* *

● وروى الخرائطى فى « هواتف الجان » : أن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، يذكران أنهما أتيا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة . قالا : فلما دخلنا عليه قال لنا: أصدقانى أيها القرشيان ، هل وُلِدَ فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونُحِرت عنه إبل كثيرة ؟ . قلنا : نعم .

قال : فهل لكما علم به وما فعل ؟

قلنا : تزوج امرأة يقال لها « آمنة بنت وهب » تركها حاملاً وخرج .

قال : فهل تعلمان وُلِد أم لا ؟

قال ورقة بن نوفل : أخبرك أيها الملك ، إنى ليلة قرَّبتُ عند وثن لنا كنا نطيف به ونعبده ، إذ سمعتُ فى جوفه هاتفاً يقول :

---

(١) وضح النهج ، للشيخ سليم البشرى ، مرجع سابق ص ٥٥ - ٥٩ بتصرف .

وُلِدَ النبـــى فذلّتِ الأمـــلاك ونأى الضلال وأدبر الإشراك

ثم انتكس الصنم على وجهه .

فقال عمرو بن نفيل : عندى كخبره أيها الملك . قال : هات .

قال : أنا فى مثل هذه الليلة التى ذكر فيها حديثه ، خرجتُ من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة ، حتى أتيتُ جبل أبى قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابنى ، إذ رأيت رجلاً نزل من السماء له جناحان أخضران ، فوقف على أبى قبيس ثم أشرف على مكة فقال : ذَلَّ الشيطان ، وبطلت الأوثان ، وُلِدَ الأمين ..

ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب ، فرأيته قد جلل ما تحت السماء ، وسطع نور كاد أن يختطف بصرى ، وهالنى ما رأيت ، وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة ، فسطع له نور أشرقت له تهامة . وقال : ذكت الأرض وأدّت ربيعها .. وأومأ إلى الأصنام التى كانت على الكعبة فسقطت كلها ...

قال النجاشى : ويحكما !! أخبرانى عما أصابنى ، إنى لنائم فى الليلة التى ذكرتما فى قبة وقت خلوتى ، إذ خرج علىّ من الأرض عنق ورأس يقول : حُلَّ الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم ، المعتدى المجرم ، ووُلِد النبى الأمى ، المكى الحرمى .. مَن أجابه سعد ، ومَن أباه عتد .

ثم دخل الأرض فغاب ، فذهبتُ أصيح فلم أطق الكلام ، ورُمْتُ القيام فلم أطق القيام ، فصرعت القبة بيدى ، فسمع بذلك أهلى فجاءونى فقلت : احجبوا عنى الحبشة . فحجبوهم عنى ثم أطلق عن لسانى ورجلى .

*

● وعن عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - قال : لما ظهر سيف بن ذى يزن - واسمه النعمان بن قيس - على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ

بسنتين .. أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه ، وتذكر ما كان من حسن بلائه .

وأتاه فيمن أتاه وفود قريش ، فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جدعان ، وخويلد بن أسد .. فى أناس من وجوه قريش ، فقدموا عليه صنعاء فإذا به فى رأس غمدان الذى ذكره أمية بن أبى الصلت :

واشـرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً فى رأس غمدان داراً منك محلالاً

فدخل عليه الآذن ، فأخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال له : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك . فقال له عبد المطلب : إن الله قد أحلك - أيها الملك - محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزّت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم موطن وأطيب معدن ..

فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذى تخصب به البلاد ، ورأس العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد ، وسلفك خير سَلَف ، وأنت منهم خير خَلَف ، فلن يخمل مَن هم سَلَفه ، ولن يهلك مَن أنت خَلَفه .. ونحن - أيها الملك - أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجك من كشف الكرب الذى قد فدحنا ، فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة .

قال : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟

قال : أنا عبد المطلب بن هاشم ، قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم . قال : إدن .. فأدناه .

ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال : مرحباً وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستناخاً

سهلاً ، وملكاً ربحلاً - أى كثير العطاء - يعطى عطاءً جزلاً .. قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم .. فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود ، فأقاموا أشهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف .. ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ، ثم قال : يا عبد المطلب ، إنى مفض إليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره .

إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً ، وخطراً جسيماً ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة ..

فقال عبد المطلب : أيها الملك ، مثلك سر وبر ، فما هو - فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر ؟

قال : « إذا وُلِدَ بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، إلى يوم القيامة » .

قال عبد المطلب : أبيتَ اللعن ، لقد أبتُ بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه ، لسألته من بشارته إياى ما أزداد به سروراً .

قال ابن ذى يزن : « هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد وُلد ، واسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، ولدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ، ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله » .

فقال عبد المطلب : أيها الملك ، عزَّ جدك ، وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ، فهذا نجارى - أى أصلى - فهل الملك سار لى بإفصاح ، فقد أوضح لى بعض الإيضاح ؟

فقال ابن ذى يزن : « والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النُصُب ، إنك - يا عبد المطلب - لجده غير كذب » .

فخرَّ عبد المطلب ساجداً ، فقال : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك .. فهل أحسستَ شيئاً مما ذكرتُ لك ؟

فقال : أيها الملك ، كان لى ابن وكنتُ به معجباً ، وعليه رفيقاً ، فزوّجته كريمة من كرائم قومه ، آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه .

فقال ابن ذى يزن : « إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل اللّه لهم عليه سبيلاً ، واطو ما ذكرتُ لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق : أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره .. ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات ، لأعلنتُ على حداثة سنة أمره ، ولأوطأتُ أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك إليك ، عن غير تقصير بمن معك » .

قال : ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء ، ومائة من الإبل ، وحلّتين من البرود ، وبخمسة أرطال من الذهب ، وعشرة أرطال فضة ، وكرش مملوء عنبراً .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحَوْل فائتنى .. فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحَوْل .

فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش ، لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ، وإن كثر ، فإنه إلى نفاد .. ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه .

فإذا قيل له : متى ذلك ؟ قال : سيُعلم ولو بعد حين [١] .

*

● وعن حسان بن ثابت رضى الله عنه قال : واللهِ إنى لغلام يفعة [٢] ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يا معشر يهود - حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا له : ويلك ، ما لك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى وُلِدَ به [٣] .

قال محمد بن إسحاق : فسألتُ سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فقلت : ابن كم كان حسان بن ثابت مقدم رسول الله ﷺ المدينة ؟ فقال : ابن ستين ، وقدمها رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين .

*

● وعن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنهم - قالت : كان يهودى قد سكن مكة يتجر بها ، فلما كانت الليلة التى وُلد فيها رسول الله ﷺ قال فى مجلس قريش : يا معشر قريش ، هل وُلد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه . فقال : الله أكبر ، أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : وُلد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عُرف فرس .

---

(١) رواه الخرائطى ، وأبو نعيم .

(٢) غلام يفعة : غلام قوى قد طال قده ، والأطمة : الحصن .

(٣) قال اليهود ذلك اعتماداً على ما جاء فى الإصحاح التاسع من سفر دانيال (٩ : ٢٤ - ٢٧) .

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : قد والله وُلِدَ لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً .

فالتقى القوم فقالوا : هل سمعتم حديث اليهودى ، وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ . فانطلقوا حتى جاءوا اليهودى فأخبروه الخبر . قال : فاذهبوا معى حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا : أخرجى إلينا ابنك . فأخرجته وكشفوا عن ظهره ، ، فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودى مغشياً عليه ، فلما أفاق قالوا له : مالك ، ويلك ؟ قال : قد ذهبت - والله - النبوة من بنى إسرائيل ، فرُحْتم بها يا معشر قريش ؟ واللهِ ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب [1] .

*

● وعن عثمان بن أبى العاص ، قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته .. قالت : فما شئ أنظره فى البيت إلا النور ، وإنى أنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : لتقعن علىّ .

● ويروى أن الشِّفاء - أم عبد الرحمن بن عوف - كانت قابلته ، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلاً يقول : يرحمك الله .

وأنه سطع منه نور رئيت منه قصور الروم . ووقع - صلى الله عليه وسلم - إلى الأرض جاثياً على ركبتيه ، معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء .

● وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : وُلِد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً - أى مقطوع الختان ، مقطوع السُّرَّة - من بطن أمه .

---

(١) رواه ابن إسحاق .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من كرامتى على الله أنى وُلِدتُ مختوناً ولم ير سوأتى أحد » (١) .

● وعن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله ، دعانى إلى الدخول فى دينك أمارة لنبوتك : رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير إليه بأصبعك ، فحيث أشرتَ إليه مال . قال : « إنى كنت أحدثه ويحدثنى ويلهينى عن البكاء ، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش » (٢) .

● وكان المولود إذا ولُد فى قريش ، دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فلما وُلِد صلى الله عليه وسلم دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ، ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء .. فأتاهن عبد المطلب فقلن له : ما رأينا مولوداً مثله ، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحاً عينيه ، شاخصاً ببصره إلى السماء . فقال : احفظنه ، فإنى أرجو أن يكون له شأن ، أو أن يصيب خيراً (٣) .

● ويقال : إن عبد المطلب حمل الرسول ﷺ وأدخله إلى جوف الكعبة ، وقام يدعو الله عَزَّ وجَلَّ ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى ... هذا الغلام الطيب الأردانِ
قد ساد فى المهد على الغلمان ... أُعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى يكون بُلغة الفتيان ... حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل ذى شنآن ... من حاسد مضطرب العنان
ذى همة ليس له عينان ... حتى أراه رائع اللسان

فلما كان اليوم السابع ، ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا :

---

(١) رواه ابن عساكر . (٢) رواه البيهقى . (٣) رواه البيهقى .

يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سميته ؟ قال : سميته محمداً . قالوا : فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردتُ أن يحمده اللّه فى السماء ، وخلقه فى الأرض .

ويقول بعض العلماء : ألهمهم اللّه عَزَّ وجَلَّ أن سموه محمداً ، لما فيه من الصفات الحميدة .. ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى فى الصورة والمعنى .. كما قال عمه أبو طالب .

* * *

● استرضاعه - صلى اللّه عليه وسلم - فى بنى سعد :

والتمس عبد المطلب لرسول اللّه ﷺ المراضع ، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها « حليمة ابنة أبى ذؤيب » .

وتحدثنا حليمة السعدية - رضى اللّه عنها - قالت : « إنها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذاك فى سنة شهباء [١] لم تُبْق لنا شيئاً .. فخرجتُ على أتان لى قمراء [٢] ، معنا شارف [٣] لنا .. واللّه ما تبض بقطرة [٤] ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع .. ما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنّا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجتُ على أتانى تلك ، فلقد أدمت بالركب [٥] حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً [٦] .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء .

فما منا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول اللّه ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم .. وذلك أنّا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟! فكنا نزهد فيه لذلك !!

---

(١) أى مجدبة .
(٢) أى تميل إلى الخضرة .
(٣) أى ناقة مُسنة .
(٤) أى ترشح بشئ .
(٥) أى أطالت عليهم المسافة لتمهلهم عليها .
(٦) أى هزالاً .

فما بقيت امرأة قَدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى .. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : واللّه إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، واللّه لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى اللّه أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبتُ إليه فأخذته .. وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت إلى رَحْلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه [1] حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها لحافل .. فحلب منها ما شرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمين واللّه يا حليمة ، لقد أخذتِ نسمة مباركة . قالت : واللّه إنى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معى ، فواللّه لقطعت بالركب ، ما يقدر عليها شئ من حمرهم .. حتى إن صواحبى ليقلن لى : يابنة أبى ذؤيب، ويحك !! أربعى علينا [2] ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى واللّه ، إنها لهى هى ، فيقلن : واللّه إنّ لها لشأناً !!

قالت : ثم قَدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض اللّه أجدب منها .. فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من اللّه الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان وفصلته .. وكان

---

(١) وهو عبد اللّه بن الحارث .

(٢) أى أقيمى وانتظرى .

يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً [1] . قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شئ على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته ، فكلمتُ أمه وقلت لها : لو تركتِ بنيَّ عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وبأ مكة .. قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا [2] .

*

وتعود حليمة بنت أبى ذؤيب - رضى الله عنها - إلى مضارب قومها ببادية بنى سعد ، قريرة العين بحملها الثمين .. وهى أحرص ما تكون على اصطحابه معها لما كانت ترى من بركته .. ولكن تشاء إرادة الله أن يعود اليتيم العظيم إلى حضن أمه ، كى تنعم بقُربه قبل أن تلحق بالرفيق الأعلى .

تقول حليمة رضى الله عنها : « فرجعنا به ، فوالله إنه بعد مقامنا بأشهر مع أخيه لفى بَهْم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى ، قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه !!

قالت : فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا له : ما لك يا بنى ؟ قال : « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ما هو » .

قالت : فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ..

فاحتملناه ، فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمكِ به يا ظئر وقد كنتِ حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

فقلت : قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى علىَّ ، وتخوَّفتُ الأحداث عليه ، فأديته إليكِ كما تحبين .

---

(١) أى غليظاً شديداً .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، مرجع سابق : ١/ ١٠٠ ، ١٠١

قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقيني خبرك !!

فلم تدعني حتى أخبرتها . قالت : أفتخوفت علىّ الشيطان ؟ قلت : نعم . قالت : كلا ، واللّه ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنيّ لشأناً ، أفلا أخبرك خبره ؛ قلت : بلى .

قالت : « رأيتُ حين حملتُ به ، أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بُصْرَى من أرض الشام ، ثم حملتُ به ، فواللّه ما رأيتُ من حَمْلٍ قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء .. دعيه عنكِ وانطلقى راشدة » [1] .

* *

● ويروى أن نفراً من أصحاب رسول اللّه ﷺ قالوا له : يا رسول اللّه ، أخبرنا عن نفسك . قال : « نعم .. أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرَى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعتُ فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا ، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً ، ثم أخذانى فشقا بطنى ، واستخرجا قلبى فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم . فقال : دعه عنك ، فواللّه لو وزنته بأمته لوزنها » [2] .

قوله صلى اللّه عليه وسلم [3] : « أنا دعوة أبى إبراهيم » عليه السلام ، هى فى القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ

---

(١) المرجع السابق : ١.١/١

(٢) نفس المرجع : ١.١/١ - ١.٣

(٣) انظر تعليق الدكتور أحمد حجازى السقا ، فى السيرة النبوية لابن هشام ، هامش : ١.٢/١

عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (١) .

وفى التوراة ، فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين : « وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فقال الله ..... ، وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه ، ها أنا أباركه ، وأثمره ، وأكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، وأجعله أمة كبيرة » (٢) .

و « كثيراً جداً » - بحساب الجُمَّل - فى اللغة العبرانية : « بماد ماد » ، وهى تعنى « محمد » ، و « أمة كبيرة » - فى اللغة العبرانية : « لجوى جدول » ، وهى تعنى « محمد » .

أما بُشرَى عيسى عليه السلام ، فهى قوله لأتباعه فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا : « إن كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب (الله) فيعطيكم مُعَزِّياً (٣) آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه » ... إلخ (٤) .

وكلمة « المعزِّى » : ترجمة الكلمة العبرانية « باراكليت » - أى النائب عن المسيح عليه السلام ليعزى بنى إسرائيل فى فقدهم المُلك والنبوة .. وعيسى عليه السلام لم ينطق « باراكليت » ، وإنما نطق « بيركليت » ، وهى تترجم « أحمد » - صلى الله عليه وسلم - والنصارى حرَّفوا نطقها إلى « باراكليت » الصفة ، لا الاسم .

* *

ويروى أن مما هاج حليمة السعدية رضى الله عنها على رده - صلى الله عليه وسلم - إلى أمه ، مع ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه : أن نفراً من الحبشة -

---

(١) البقرة : ١٢٩
(٢) سفر التكوين ١٧ : ١٨ ، ٢٠
(٣) بضم الميم وكسر الزاى المشددة .
(٤) يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٧

نصارى - رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا ، فإن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره (!!) .

يقول ابن إسحاق : فقال الذى حدثنى : إنها لم تكد تنفلت به منهم [1] .

كما يروى أن حليمة لما قدمت به مكة ، أضلها الناس وهى مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب فقالت له : إنى قد قَدِمتُ بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى ، فواللّه ما أدرى أين هو ؟ فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو اللّه أن يرده ، ويقال : إنه وجده ورقة بن نوفل بن أسد ، ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة .. فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة ويعوِّذه ويدعو له .. ثم أرسل به إلى أمه آمنة ..

* * *

● اليتيم العظيم :

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى فى « الهمزية » :

نِعْمَ اليتيمُ بَدَت مَخايلُ [2] فضلِه واليُتـــمُ رزقٌ بعضُـــــه وذكاءُ

فـــى المهدِ يُستَسقَى الحَيا برجائه وبقَصـــــدِه تُستَدفَـــعُ البَأساءُ [3]

● أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمتُ مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادى وأجدب العيال ، فهلم فاستسقى ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجى ، تجلت عن سحابة قتماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ،

---

(١) السيرة النبوية - لابن هشام - مرجع سابق : ١/١٠٤ (٢) المخيلة : الظنة .

(٣) استسقى الرجل : طلب السقى ، والحيا : المطر .

وما فى السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق واغدودق ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأبيضُ يُستسقـى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل [1]

كما يقول « شوقى » فى نهج البردة :

ذُكِـرْتَ باليُتْمِ فى القرآنِ تَكْرِمةً وقيمةُ اللؤلؤ المكنونِ فى اليُتْمِ

واليُتم فى الناس : فقدان الأب ، وهو فى الأشياء التفرد وعدم وجود نظائرِ لها ، واللؤلؤة اليتيمة : التى لا نظير لها فى العقد .. ويشير بقوله : « ذكرت باليُتْمِ فى القرآن » إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ [2] .

● كان رسول اللّه ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب فى كلاءة اللّه وحفظه ، يُنبته اللّه نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ ست سنين ، توفيت أُمه آمنة بنت وهب .

● وذكر الواقدى بأسانيده : أن النبى ﷺ ، خرجت به أمه إلى المدينة ومعها « أم أيمن » ، وله ست سنين فزارت أخواله ...

تقول أم أيمن : فجاءنى ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لى : أخرجى إلينا أحمد ننظر إليه ، فنظرا إليه وقلّباه ، فقال أحدهما لصاحبه : هذا نبى هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم ..

فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالأبواء وهى راجعه ، فدفنت بها .

● وعن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول اللّه ﷺ آمنة توفيت ورسول اللّه ﷺ ابن ست سنين بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على

---

(١) الرحيق المختوم ، للشيخ صفى الرحمن المباركفورى ، ص ٦٦

(٢) الضحى : ٦

أخواله من بنى عدى بن النجار ، تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة .

● وذكر البيهقى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ خرج يوماً ينظر فى المقابر ، وخرجنا معه ، فأمرنا فجلسنا .. ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها ، فناجاه طويلاً ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً ، فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ .. ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، ما الذى أبكاك ؟ لقد أبكانا وأفزعنا !! فجاء إلينا فقال : « أفزعكم بكائى » ؟ قلنا : نعم . قال : « إن القبر الذى رأيتمونى أناجى قبر آمنة بنت وهب ، وإنى استأذنتُ ربى فى زيارتها فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ... فأخذنى ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة ، فذلك الذى أبكانى » (١) .

ورواه مسلم عن أبى هريرة فقال : « زار النبى ﷺ قبر أمه ، فبكى وأبكى مَن حوله ، ثم قال : « استأذنتُ ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى .. فزوروا القبور تذكركم الموت » (٢) .

* * *

مات أبوه ، وكان - صلى الله عليه وسلم - جنيناً فى بطن أمه لم ير النور .

ثم ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره .. فكفله جده عبد المطلب .

وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر ، حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع ..

---

(١) رواه البيهقى .

(٢) رواه مسلم .

ثم لم يلبث عبد المطلب أن مات ورسول الله ﷺ فى الثامنة من عمره ..

يقول ابن هشام : « فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانى سنين مات عبد المطلب بن هاشم - وذلك بعد عام الفيل بثمانى سنين - قال ابن إسحاق : حدثنى العباس ابن عبد الله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله : أن عبد المطلب توفى ورسول الله ﷺ ابن ثمانى سنين » .

ثم ولى زمزم والسقاية عليها من بعده العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سناً ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده .. فأقرها رسول الله ﷺ له على ما مضى من ولايته ، فهى إلى آل العباس ، بولاية العباس إياها إلى اليوم .

وكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبى طالب ، وكان عبد المطلب - فيما يروون - يوصى به عمه أبا طالب ، وذلك لأن عبد الله - والد رسول الله ﷺ - وأبا طالب أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم .

يقول ابن إسحاق : وكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله ﷺ بعد جده ، فكان إليه ومعه .

* * *

● الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى كفالة عمه :

انتقل رسول الله ﷺ إلى كفالة عمه أبى طالب ، ويحدثنا ابن هشام عن حادثتين - وقعتا فى هذه الفترة - لهما دلالة عظيمة عما يكون من أمر اليتيم العظيم - كفيل أبى طالب صلى الله عليه وسلم - فيقول :

« قال ابن إسحاق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير : أن أباه الزبير حدثه : أن رجلاً من لهب - قال ابن هشام : ولهب من أزد شنوءة كان عائفاً ، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، قال : فأتى به أبو طالب وهو غلام ، مع مَن يأتيه ، فنظر إلى

رسول اللّه ﷺ ، ثم شغله عنه شئ ، فلما فرغ قال : الغلام .. عليّ به ، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيّبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ، ردوا عليّ الغلام الذى رأيتُ آنفاً ، فواللّهِ ليكونن له شأن . قال : فانطلق أبو طالب » [1] .

هذه واحدة .. أما الثانية ، فهى قصته مع بحيرى الراهب .

يقول ابن هشام : « ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ، وأجمع المسير صب به رسول اللّه ﷺ - فيما يروون - فرَقٌ له وقال : واللّهِ لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً » .

فخرج به معه ، فلما نزل الركب « بُصْرَى » من أرض الشام ، وبها راهب يقال له « بحيرى » فى صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب ، يتوارثونه فيما يزعمون كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكان كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته ، صنع لهم طعاماً كثيراً - وذلك فيما يروون - عن شئ رآه فى صومعته ، ويقال إنه رأى رسول اللّه ﷺ وهو فى صومعته ، فى الركْب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم .

قال : ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول اللّه ﷺ حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم فقال : إنى قد صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق : ١/ ١١٠

فقال له رجل منهم : واللّه يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ، فما كنتَ تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببتُ أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم . فاجتمعوا إليه .

وتخلّف رسول اللّه ﷺ من بين القوم - لحداثة سنه - فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلّف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سناً ، فتخلّف فى رحالهم ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللاّتِ والعُزّى ، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد اللّه بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا ، قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللاّتِ والعُزّى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟

وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع القوم يحلفون بهما .

فرووا أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا تسألنى باللاّتِ والعُزّى ، فواللّهِ ما أبغضتُ شيئاً قَط بغضهما » .

فقال له بحيرى : فباللّه إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟

فقال له : « سلنى عما بدا لك » .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ، فى نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول اللّه ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ،

فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده - يقول ابن هشام : وكان مثل أثر المحجم .

فلما فرغ ، أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى . قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبيه حياً . قال : فإنه ابن أخى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فواللّه لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأنَ عظيم ، فأسْرِعْ به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، فرووا فيما يروى الناس : أن زريراً وتماماً ودريساً - وهم نفر من أهل الكتاب - قد كانوا رأوا من رسول اللّه ﷺ مثل ما رآه بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه فردهم عنه بحيرى ، وذكّرهم اللّه وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه . ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدّقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه »[1] .

● وفى رواية للترمذى ، عن أبى موسى الأشعرى قال : خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول اللّه ﷺ فقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه اللّه رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟

---

(١) المرجع السابق : ١/ ١١٠ - ١١٢

فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خَرَّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة .

ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به فكان هو فى رعية الإبل فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل - صلى الله عليه وسلم - وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة ، فلما جلس مال فئ الشجرة عليه فقال : انظروا إلى فئ الشجرة مال عليه .

قال : فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فالتفت فإذا بسبعة من الروم فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا أن هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنّا قد أخبرناهم خبره ، بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

قالوا : إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا .

قال : أرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا . قال : فبايعوه وأقاموا معه .

قال : أنشدكم بالله ، أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب . فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب ... » [1] .

يقول ابن هشام : « فشبَّ رسول الله ﷺ ، والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد منه من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً ، وأفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خُلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش

---

(١) رواه الترمذى (٣٦٩٩) .

والأخلاق التى تدنس الرجال ، تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين ، لِمَا جمع الله فيه من الأمور الصالحة » [1] .

*

● وحادثة ثالثة يرويها ابن هشام ، تلك هى رحلته مع « ميسرة » غلام خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فى تجارتها إلى الشام قبل زواجه صلى الله عليه وسلم منها .

يقول ابن هشام : « كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال . تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه ، بشئ تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها ، من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام .

فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، فقال له : مَن هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى [2] .

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة - فيما يروون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى مَلَكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره .

فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به ، فأضعف أو قريباً ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من إظلال المَلَكين إياه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ١١٢/١

(٢) فى رواية الروض الأنف : « لم ينزل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم عليه السلام » .

وذكرت خديجة - رضى الله عنها - لابن عمها ورقة بن نوفل - وقد كان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ، فقال ورقة : « لئن كان هذا حقاً يا خديجة ، إن محمداً لنبى هذه الأمة ، وقد عرفتُ أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنتظر ، هذا زمانه » (١) .

وكانت خديجة - رضى الله عنها - امرأة حازمة ، شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له - فيما يروون - : « يابن عم ، إنى قد رغبتُ فيك لقرابتك ، وسِطَتِكَ فى قومك ، وأمانتك وحسن خُلُقك ، وصدق حديثك » .. ثم عرضت عليه نفسها .

وكانت رضى الله عنها يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه .

فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه فتزوجها . وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بَكْرة ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضى الله عنها . فولدت له ولده كلهم - إلا إبراهيم - : « القاسم - وبه كان يكنى - والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضى الله عنهم » .

يقول ابن هشام : أكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر . وأكبر بناته : رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ..

فأما القاسم والطيب والطاهر ، فماتوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١١٦/١

وأما إبراهيم ، فأمه مارية القبطية - سرية النبى ﷺ التى أهداها إليه المقوقس .

وكان الرسول ﷺ فى الخامسة والعشرين من عمره عند زواجه منها ، فى حين أنها - رضى اللّه عنها - كانت فى الأربعين من عمرها [1] .

* * *

وحدث عندما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره ، أن هُدِمت الكعبة ، واجتمعت قريش لبنيانها ، وجمعت القبائل من قريش الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها .

فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، اختصموا فيه .. كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحازوا وتحالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدارجفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا .

ثم إن أبا أمية بن المغيرة المخزومى - وكان عامئذ أسن قريش كلها - قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول مَن يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول داخل عليهم رسول اللّه ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى اللّه عليه وسلم : « هلم إلىّ ثوباً » ، فأُتِىَ به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من

---

(١) قيل : كان سنه - صلى اللّه عليه وسلم - إحدى وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين ، وقيل سبعاً وثلاثين ، وقيل غير ذلك (راجع شرح المواهب ، والاستيعاب) . وقيل : كان عمر خديجة رضى اللّه عنها إذ ذاك أربعين سنة ، وقيل : خمساً وأربعين .

الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ ، قبل أن ينزل عليه الوحى : الأمين .

وكانت الكعبة على عهده - صلى الله عليه وسلم - ثمانى عشرة ذراعاً ، وكانت تكسى القباطى ، ثم كسيت البرود ، وأول من كساها الديباج : الحجاج ابن يوسف .

* * *

● بُشريات بالنبوة :

يقول ابن هشام : « وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب .. قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه ، لما تقارب زمانه .

أما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تُحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، لا تُلقى العرب لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرونها ، فعرفوها .

وأما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه » .

ويعلق الدكتور أحمد حجازى السقا على هذا بقوله :

« إن كتب التوراة المتداولة الآن بين اليهود والنصارى ، وكتب الأناجيل المتداولة الآن بين النصارى هى التى كانت بنصها فى القرن الرابع الميلادى ، ومنها عرفوا خبر نبوة محمد ﷺ ، ومنها يعرفون اليوم .

ويقول علماء أهل الكتاب بأن التوراة حُرِّفت فى السبى البابلى عمداً (عام ٥٨٦ ق . م) ، ولم تُحرَّف بعد السبى البابلى إلى اليوم ، وبأن الأناجيل حُرِّفت

فى مجمع نيقية (عام ٣٢٥ م) ولم تُحرَّف من بعد هذا المجمع إلى اليوم ، والإصحاح التاسع من سفر دانيال هو الذى يحدد سنة ولادة النبى ﷺ » [١] .

يقول دانيال : « سبعون أسبوعاً قضيتَ على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفَّارة الإثم ، وليؤتى بالبرِّ الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين . فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً يعود ويبنى سوق وخليج فى ضيق الأزمنة . وبعد اثنتين وستين أسبوعاً يُقطع المسيح وليس له ، وشعب رئيس آت يَخْرِب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة وإلى النهاية ، حرب وخرب قُضِى بها . ويُثبت عهداً مع كثيرين فى أسبوع واحد ، وفى وسط الأسبوع يُبطل الذبيحة والتقدمة ، وعلى جناح الأرجاس مُخَرِّب حتى يتم ويُصَبّ المقضىّ على المخرّب » [٢] .

« المسيح الرئيس » فى هذا النص - هو لقب الرسول ﷺ كما بيَّن برنابا ، وقد بيَّن عيسى عليه السلام أن نبى البر المشار إليه - فى نص دانيال هذا - لم يكن قد أتى من قبله ، بل سيأتى بعده ، وذلك فى قوله لتلاميذه : « لكنى أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالَم على خطية وعلى برٍّ وعلى دينونة » [٣] . يشير بقوله : « وعلى برٍّ » إلى كلام دانيال ، أى أنه نبى البرّ وسوف يرفضونه وسوف يوبخهم على هذا الرفض .

ومن أين نحسب السبعين أسبوعاً ؟

المتبادر إلى الذهن أن نحسب من هدم هيكل سليمان على يد نبوخذ نصر (عام ٥٨٦ ق . م) لأن الهدم يدل على إعادة البناء عادة ، ولكن العقل يهدينا

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - الجزء الأول ، هامش ص ١٢٤

(٢) سفر دانيال ٩ : ٢٤ - ٢٧ (٣) يوحنا ١٦ : ٧ - ٨

إلى غير هذا ، يهدينا إلى أن سفر دانيال قد سلّمه اليهود إلى النصارى سنة ٩٠ من ميلاد المسيح عليه السلام فى مجمع « يمنيه » - أى بعد رفع عيسى إلى السماء ، فلو كان هذا السفر منشوراً فى العالَم قبل ذلك التاريخ لما سلّمه اليهود إلى النصارى فى ذلك الزمان .

يقول القس الدكتور « إلياس مقار » - رئيس الطائفة الإنجيلية بمصر : « وقد استلمت الكنيسة المسيحية من اليهود أسفار العهد القديم التى قرر اليهود فى مجمع « يمنيه » عام ٩٠ ميلادية قانونيتها » .

والأسبوع فى لغتهم قد يعنى سبع سنوات - كما فى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر التكوين ، وقد وُلد نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم فى عام (٥٧٠ - أو ٥٧١ م) - ونحن نعلم أن اليهود يلبسون الحق بالباطل ، فغير بعيد أن يجعلوا النص ملغزاً ، ولو أنك حسبت ٩٠ (سنة التسليم) + ٤٨٣ (قيمة سبعة أسابيع بالإضافة إلى ٦٢ أسبوعاً) = ٥٧٣ ، فالزمن قريب من نبى الإسلام ، وقد بقى من السبعين أسبوعاً أسبوع واحد وهو المشار إليه بقوله : « وفى أسبوع واحد يثبت عهداً مع كثيرين » ، أى أن المدة كلها سبعون أسبوعاً ، منها أسبوع واحد للعهد وتسيير الجيوش لغزو بلاد الشام .

وقوله : « وبعد اثنين وستين أسبوعاً يُقطع المسيح » : أن عُمْر نبى الإسلام مقدّر باثنتين وستين سنة ، لأن الأسبوع عندهم يأتى بمعنى السنة أيضاً - كما نص عليه أرمياء فى سفره ونقله مفسرو النصارى فى تفسير عبارات دانيال عن الأسابيع السبعين .

وقوله : « يُقطع المسيح ، وليس له » ، أى يموت المسيح المنتظر - وهو النبى ﷺ - وليس له أولاد من صلبه يملكون على مملكته .

وقوله : « شعب رئيس آت يخرب المدينة » ، يشير إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فهو خليفة عن رسول الله ﷺ ، ليس من أولاده بل من صحابته وأتباعه ، والمراد بالمدينة « أورشليم القدس » ، وقد كتب عمر العهدة العمرية مع « صفرنيوس » .

وقوله : « يُبطل الذبيحة والتقدمة » إشارة إلى انتهاء العمل بالشريعة اليهودية .

وقوله : « فاعلم وافهم » يدلك على ما ذهبنا إليه .

وقد بيّن عيسى عليه السلام أن هذه الحادثة تتم فى فتح المسلمين لأورشليم ، فقد حكى ما نصه : « ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل ، فتقدم تلاميذه لكى يُروه أبنية الهيكل . فقال لهم يسوع : أما تنظرون جميع هذه ؟ . الحق أقول لكم : إنه لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض . وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدّم إليه التلاميذ على انفراد قائلين : قل لنا : متى يكون هذا » ؟ [١] .

وقد ذكر عيسى عليه السلام علامات ، ثم قال بعد ذكر العلامات وهى :

١ - ظهور أنبياء كذبة .

٢ - حروب تقوم بين الأمم لقيام أُمة على أُمة ، وحدوث مجاعات وأوبئة وزلزال .

٣ - اضطهاد الأمم لتلاميذه .

٤ - ارتداد بعض النصارى عن دينهم .

٥ - انتشار الإنجيل ..

قال بعد ذكر هذه العلامات : « فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس . ليفهم القارئ » ... إلخ [٢] ، يشير إلى نص دانيال هذا [٣] .

* * *

---

(١) متى ٢٤ : ١ - ٣ (٢) متى ٢٤ : ١٥

(٣) انظر إظهار الحق للشيخ رحمه الله الهندى ، نشر دار التراث العربى - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦ هامش ص ١٨٦ - ١٨٨ بتصرف .

● الكهان ، والأحبار ، والرهبان - يبشرون بنبوته :

لما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه ، حُجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله تعالى فى العباد .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ حين بعثه ، وهو يقص عليه خبر الجن إذ حجبوا عن السمع ، فعرفوا ما عرفوا ، وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ (١) .. إلى قوله : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً * وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ (٢) .

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما مُنعت من السمع قبل ذلك ، لئلا يشكل الوحى بشئ من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه ، لوقوع الحُجَّة وقطع الشُبهة ، فآمنوا وصدَّقوا ثم ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الجن : ١ - ٦ (٢) الجن : ٩ - ١٠ (٣) الأحقاف : ٢٩ - ٣٠

وكان قول الجن : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ (١) ، أنه كان الرجل من العرب من قريش وغيرهم إذا سافر فنزل بطن وادٍ من الأرض ليبيت فيه ، قال : إنى أعوذُ بعزيز هذا الوادى من الجن الليلة من شر ما فيه » .

*

● وعن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس ، أنه حدَّث أن أول العرب فزع للرمى بالنجوم حين رُمِىَ بها هذا الحى من ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له « عمرو بن أمية » أحد بنى علاج - وكان أدهى العرب وأنكرها رأياً - فقالوا له : يا عمرو ، ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال : بلى ، فانظروا : فإن كانت معالم النجوم التى يُهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء - لما يصلح الناس فى معايشهم - هى التى يُرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوماً غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد به هذا الخلق ، فما هو ؟

● وذكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، عن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، عن عبد الله بن عباس ، عن نفر من الأنصار : أن رسول الله ﷺ قال لهم : « ماذا كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يُرمَى به » ؟ قالوا : يا نبى الله ، كنا نقول حين رأيناها يُرمَى بها : مات ملك ، مُلِّك ملك ، ولد مولود ، مات مولود . فقال رسول الله ﷺ : « ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى فى خلقه أمراً سمعه حملة العرش فسبَّحوا ، فسبَّح مَن تحتهم ، فسبَّح لتسبيحهم مَن تحت ذلك .. فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء

---

(١) الرهق : الطغيان والسفه ، وهو أيضاً : طلبك الشئ حتى تدنو منه فتأخذه أو لا تأخذه ، كما أنه مصدر لقول الرجل للرجل : رهقت الإثم ، أو العُسر ، الذى أرهقنى رهقاً شديداً - أى حملت الإثم ، أو العُسر الذى حملتنى حملاً شديداً .

الدنيا ، فيسبِّحوا ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبَّحتم ؟ فيقولون : سبَّح مَن فوقنا فسبَّحنا لتسبيحهم ، فيقولون : ألا تسألون مَن فوقكم مِمَ سبَّحوا ؟ فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم : مِمَ سبَّحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا - للأمر الذى كان - فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به ، فيخطئون ويصيبون فيتحدث به الكهان ، فيصيبون بعضاً ويخطئون بعضاً ، ثم إن الله عَزَّ وجَلَّ حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم ، فلا كهانة ».

*

● ويقول ابن إسحاق : « وحدَّثنى بعض أهل العلم : أن امرأة من بنى سهم يقال لها « الغيطلة » [1] ، كانت كاهنة فى الجاهلية ، جاءها صاحبها ليلة من الليالى فانقض تحتها ثم قال : أدر ما أدر ، يوم عقر ونحر .. فقالت قريش حين بلغها ذلك : ما يريد ؟

ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال : شعوب ما شعوب ، تصرع فيه كعب لجوب .. فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا : ماذا يريد ؟ ، إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة « بدر » و « أحد » بالشِعب ، فعرفوا أنه الذى كان جاء به إلى صاحبته » .

*

● وعن علىّ بن نافع الجرشى : أن « جنباً » [2] كان لهم كاهن فى الجاهلية فلما ذُكِر أمر رسول الله ﷺ وانتشر فى العرب ، قالت له جنب : انظر لنا فى

---

(١) الغيطلة : من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة ، إخوة مدلج بن مرة ، وهى أم الغياطل ، وهم من بنى سهم بن عمرو بن هصيص .

(٢) بطن من اليمن .

أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له فى أسفل جبله ، فنزل عليهم حين طلعت الشمس، فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً ، ثم جعل ينزو [1] ثم قال : أيها الناس ، إن اللّه أكرم محمداً واصطفاه ، وطهّر قلبه وحشاه ، ومكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم أسند إلى جبله راجعاً من حيث جاء .

*

● وعن عبد اللّه بن كعب - مولى عثمان بن عفان - أنه حدّث : أن عمر بن الخطاب بينما هو جالس فى الناس فى مسجد رسول اللّه ﷺ ، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجد ، يريد عمر بن الخطاب ، فلما نظر إليه عمر رضى اللّه عنه قال : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً فى الجاهلية .

فسلّم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر رضى اللّه عنه : هل أسلمتَ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال له : فهل كنتَ كاهناً فى الجاهلية ؟

فقال الرجل : سبحان اللّه يا أمير المؤمنين ، لقد خلتَ فى واستقبلتنى بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليتَ ما وليت !!

فقال عمر : اللّهم غفراً ، قد كنا فى الجاهلية على شر من هذا ، نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا اللّه برسوله وبالإسلام ، قال : نعم - واللّهِ يا أمير المؤمنين - لقد كنتُ كاهناً فى الجاهلية .

قال : فأخبرنى ما جاءك به صاحبك .

قال : جاءنى قبل الإسلام بشهر أو شيعه فقال : ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإياسها فى دينها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها .

---

(١) أى يثب .

فقال عمر بن الخطاب عند ذلك يحدِّث الناس : « واللّه إنى لعند وثن من أوثان الجاهلية فى نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه ، إذ سمعتُ فى جوف العجل صوتاً ما سمعتُ صوتاً قط أنفذ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه يقول : يا ذريح ، أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول : لا إله إلا اللّه » - ويقال : « رجل يصيح ، بلسان فصيح يقول : لا إله إلا اللّه » .

يقول ابن هشام : وأنشدنى بعض أهل العلم بالشعر :

عجبتُ للجـــن وإبـــلاسها وشـدها العيس بأحـــلاسها

تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنـــو الجـــن كأنجاسها

* *

● وكما بَشَّر كهان العرب بقرب بعث النبى ﷺ ، بَشَّر به أيضاً الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى .

فعن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة اللّه تعالى وهداه لنا - لما كنا نسمع من رجال يهود .

كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبى يُبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث اللّه رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى اللّه تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به .. ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

*

(١) البقرة : ٨٩

● وعن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لبيد أخى عبد الأشهل ، عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان سلمة من أصحاب بدر . قال : كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل ، قال : فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل - قال سلمة : وأنا يومئذ من أحدث من فيه سناً ، علىَّ بردة لى ، مضطجع فيها بفناء أهلى - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار .

قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلان !! أوَ ترى هذا كائناً : أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يُجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذى يُحلف به ، ولودٌ أن له بحظه من تلك أعظم تنور فى الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غداً .

فقالوا له : ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟

قال : نبى مبعوث من نحو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن - فقالوا : ومتى نراه ؟ . قال : فنظر إلىَّ وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : فواللّه ما ذهب الليل والنهار حتى بعث اللّه محمداً رسوله ﷺ ، وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به بغياً وحسداً . قال : فقلنا له : ويحك يا فلان ، ألستَ الذى قلته لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ، ولكن ليس به .

*

● وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن شيخ من بنى قريظة قال : إن رجلاً من يهود من أهل الشام ، يقال له « ابن الهيبان » قدم علينا قبيل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا ، لا واللّه ما رأينا رجلاً قط لا يصلى [1] أفضل منه ، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له : اخرج يابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول :

---

(١) أى من غير المسلمين .

لا واللّه حتى تقدِّموا بين يدى مخرجكم صدقة ، فنقول له : كم ؟! فيقول : صاعاً من تمر ، أو مُدَّين من شعير .

قال : فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرثنا فيستسقى اللّه لنا ، فواللّه ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونُسقَى ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتينَ ولا ثلاث .

قال : ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا : إنك أعلم .

قال : إنما قَدمتُ هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظلَّ زمانه ، وهذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه ، وقد أظلَّكم زمانه ، فلا تُسبَقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسفك الدماء ، وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعنكم ذلك منه .

فلما بُعث رسول اللّه ﷺ وحاصر بنى قريظة ، قال هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحداثاً : يا بنى قريظة ، واللّه إنه للنبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان ، قالوا : ليس به . قالوا : بلى واللّه ، إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم .

* * *

● وفى نصوص التوراة عن الرسول ﷺ النبوءات التالية :

(أ) فى الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين قال ملاك الرب لهاجر رضى اللّه عنها : « ها أنت حُبلى ، فتلدين ابناً ، وتدعين اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك . وإنه يكون إنساناً وحشياً ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع إخوته يسكن » (١) .

لقد بَشَّر ملاك اللّه هاجر بأن إسماعيل سيكون عين الناس ، وأن يده تكون فى الكل ويد الكل فيه . ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين فى

---

(١) سفر التكوين ١٦ : ١١ - ١٢

معظم الأمم ولا كانوا ممازجين لهم إلا بالإسلام . وملاك الله لا يُبشِّر بالظلم والجور والكذب .

(ب) فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى أن يحيا ابنه إسماعيل عليه السلام وذريته فى طاعة الله . فقال الله تعالى : « وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، وأجعله أمة كبيرة » (١) .

فقد ثبتت بركة لإسماعيل ، والبركة تعنى : أن يكون من النسل أمم وملوك على الشعوب ونبى صاحب شريعة ، لئلا يظلم الملوك الشعوب إذا حكموا من تلقاء أنفسهم ، وفى التوراة أيضاً بركة لإسحاق عليه السلام كبركة إسماعيل ، وفى القرآن الكريم إشارة إلى بركتيهما فقد قال تعالى : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ (٢) .

و « كثير جداً » - فى اللغة العبرانية : « بماد ماد » ، وأمة كبيرة : « لجوى جدول » ، وقد قال علماء من بنى إسرائيل أن الله رمز بهما لاسم النبى الآتى بعد إسماعيل للبركة - بحساب الجُمَّل- وهما يُنطقان على اسم محمد .. فالباء فى « بماد ماد » = ٢ ، والميم = ٤٠ ، والألف = ١ ، والدال = ٤ ، والميم = ٤٠ ، والألف = ١ ، والدال = ٤ ، فالمجموع = ٩٢

ومحمد : الميم = ٤٠ ، والحاء = ٨ ، والميم = ٤٠ ، والدال = ٤ ، فالمجموع = ٩٢

ولجوى جدول : اللام = ٣٠ ، والجيم = ٣ ، والواو = ٦ ، والياء = ١٠ ، والجيم = ٣ ، والدال = ٤ ، والواو = ٦ ، واللام = ٣٠ ، فالمجموع = ٩٢

(جـ) فى الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين أنه لما حضر يعقوب الموت دعا بنيه : رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويساكر ودان وجاد

---

(١) سفر التكوين ١٧ : ٢٠ (٢) الصافات : ١١٣

وأشير ونفتالى ويوسف وبنيامين ، وقال لهم : اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . ثم قال لهم فى شخص يهوذا ابنه ما نصه : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون [1] ، وله يكون خضوع شعوب » [2] .

أى يظل المُلْك فى اليهود وتظل شريعة التوراة يعمل بها الناس فى ظل اليهود حتى يأتى من غير اليهود مَن يتسلم المُلك منهم والشريعة وهو المعبَّر عنه بشيلون . ولما كان لإسماعيل بركة فإذن شيلون منه . ولم يزل المُلك من اليهود ولم تزل الشريعة إلا على يد نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فالنبى الذى كان قبله مباشرة من بنى إسرائيل - وهو عيسى عليه السلام - قال لقومه : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [3] .

أى أنه إلى زمن ظهوره كانت التوراة هدىً للناس ، وأنه قال بصريح العبارة : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئتُ لأنقض بل لأكمل » [4] وكان أتباعه - عليه السلام - طائفة من بنى إسرائيل .

(د) تقول التوراة : إن الله تعالى طلب من موسى عليه السلام فى طور سيناء أن يجمع له بنى إسرائيل ناحية جبل الطور « حوريب » ليسمعوا صوت الله وهو يتكلم مع موسى فيتأكدوا من وجوده ويهابوه كل الأيام ، فجمعهم موسى وأثناء الكلام حدث ظلام وسحاب وضباب ، واضطرم الجبل بالنار فخاف بنو إسرائيل ، وبعد الكلام قالوا لموسى : إن أراد الله أن يُسمعنا صوته فليُسمعنا عن طريق نبى ، ونحن نسمع لذلك النبى ونطيع ، فقال الله لموسى : قد أحسنوا فى ما تكلموا ، ولسوف أرسل لهم نبياً فى المستقبل له يسمعون ويطيعون .

---

(١) شيلون : أى الناطق بالحق .
(٢) سفر التكوين ٤٩ : ١٠
(٣) الصف : ٦
(٤) متى ٥ : ١٧

وفى الإصحاح الثامن عشر من سِفر التثنية بيَّن اللّه فيه لليهود أنه سوف يرسل لهم نبياً بقوله : « يقيم لك الرب إلهك نبياً ، من وسطك ، من إخوتك ، مثلى له تسمعون » [١] .

ثم يقول : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وإن قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى ، فلا تخف منه » [٢] .

والمتأمل لهذا النص يجد أن أوصاف هذا النبى الموعود هى :

١ - يكون عبداً رسولاً : « نبياً » .

٢ - أنه من بنى إسماعيل ، لأن لإسماعيل بركة ، وإسماعيل أخ لإسحاق : « من وسط إخوتهم » .

٣ - أنه مثل موسى عليه السلام عبد اللّه ورسوله ، وكونه ذا والدين ، وكونه ذا نكاح وأولاد ، وكونه يموت موتاً طبيعياً ، وكونه مدفوناً كموسى ، وعدم كونه ملعوناً : « مثلك » .

٤ - أنه سوف ينسخ شريعة موسى : « له تسمعون » .

٥ - أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب : « أجعل كلامى فى فمه » .

٦ - أنه أمين على الوحى الإلهى : « فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .

٧ - أنه يقضى على مُلك اليهود فى العالَم - وخاصة فى فلسطين - : « ويكون الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » .

---

(١) سفر التثنية ١٨ : ١٥ (٢) سفر التثنية ١٨ : ١٨ - ٢٢

٨ - وكونه مثل موسى يقتضى أن تكون له شريعة مشتملة على : السياسات المدنية - كونه مأموراً بالجهاد - اشتراط الطهارة وقت العبادة فى شريعته - وجوب الغُسل للجُنُب والحائض والنفساء فى شريعته - اشتراط طهارة الثوب من البول والغائط - حُرْمة غير المذبوح وقرابين الأوثان - كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية - أمره بحد الزنا - تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص - كونه قادراً على إجرائها - تحريم الربا - أمره بإنكار مَن يدعو غير اللّه - أمره بالتوحيد الخالص - أمره الأمة بأن يقولوا له « عبد اللّه ورسوله » ، لا ابن اللّه ، أو اللّه - والعياذ باللّه .

٩ - أنه يموت على الفراش فلا يُقتل أو يُصلب : « وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى » .

١٠ - أنه يتحدث عن أشياء تحدث فى مستقبل الأيام : « فما تكلم به النبى باسم الرب ، ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب » ... إلخ .

وقد أخبر الرسول ﷺ عن أشياء تحدث من بعده ، ووقعت تماماً كما أخبر ، ومنها :

(١) فتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق ومصر وفارس .

(٢) هزيمة الفُرس واقتسام المسلمين لكنوز مُلكهم .

(٣) افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فِرقة .

(٤) موت أبى لهب وأبى جهل وأُبَىّ بن خلف على الكفر .

(٥) إخباره عمن يُقتل من كفار قريش ببدر ، وموضع قتل كل واحد منهم قبل بدء المعركة .

(٦) نعيه لزيد وجعفر وابن رواحة فى غزوة مؤتة قبل أن يأتى خبرهم .

(٧) ظهور نار عظيمة بأرض الحجاز .

(٨) إخباره عن عير قريش ليلة الإسراء ووصفه للمسجد الأقصى .

(٩) سراقة بن جعشم يلبس سوارى كسرى .

(١٠) استشهاد عمر وعثمان وعلىّ .

(١١) الحسن بن علىّ يُصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

(١٢) وقوع الفتنة بين علىّ ومعاوية ومقتل عمار على يد الفئة الباغية .

(١٣) مقتل الحسين بن علىّ بالطف .

(١٤) مدة الخلافة ثلاثون ثم تصير مُلكاً عضوضاً .

(١٥) هلاك الأمة على يد أغيلمة من قريش (يزيد وبنو مروان) .

(١٦) ظهور كذّاب ومبير [١] فى ثقيف (المختار والحجاج) .

(١٧) فاطمة رضى اللّه عنها أول أهله لحوقاً به .

(١٨) زينب بنت جحش أول أزواجه لحوقاً به .

(١٩) أبو ذر يعيش وحيداً ويموت وحيداً .

(٢٠) ركوب أم حرام بنت ملحان البحر للغزو فى سبيل اللّه .

(٢١) مكان المرأة التى تحمل كتاب حاطب لكفار قريش .

وقد وقعت هذه الأمور كلها - وغيرها كثير سنتحدث عنه فى موضعه - مما يؤكد لنا أن آية التثنية كانت البشارة برسول اللّه ﷺ .

وأن النبى الموعود به هو نبى الإسلام صلى اللّه عليه وسلم .. فقد نصت التوراة على أنه لن يظهر فى بنى إسرائيل مثل موسى فى الحروب والمعجزات والانتصار على الأعداء : « ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى

---

(١) أى مهلك .

عرفه الرب وجهاً لوجه . فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه . وفى كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل » [١] .

ولأن لإسماعيل بركة وأولاده إخوة لبنى إسرائيل « وهذه سنو حياة إسماعيل: مئة وسبع وثلاثون سنة ، وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه . وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجئ نحو آشور ، أمام جميع إخوته نزل » [٢] .

وقد ظن علماء المسيحية أن هذه الآيات من سفر التثنية قد جاءت فى حق المسيح عليه السلام ، غير أن بطرس قد أبطل هذا الادعاء حين قال فى سِفر الأعمال :

« فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب . ويُرسل يسوع المسيح المبشَّر به لكم قبل ، الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شئ التى تكلم عنها اللّه بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر . فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به ، ويكون أن لكل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب » [٣] .

لقد نصت الآية ٢٠ من هذا النص على أنه : « يُرسِل - بضم الياء وكسر السين - يسوعَ المسيح - بفتح العين - المبشَّرَ به - بفتح الراء - لكم قبل .

ولو أن كلمة « المبشر » جاءت بضم الراء لكان النص صريحاً فى مجئ محمد ﷺ بعد المسيح عليه السلام . وسياق الكلام يدل على أن بطرس يتحدث عن نبى بعد المسيح لأنه يقول لليهود : « توبوا وارجعوا » ، وهو نفس المعنى الذى قاله المسيح عن نبى الإسلام ، لقد قال : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وأزمنة الراحة تبدأ من زمان مجئ النبى المبشَّر به ، ولو كانت فى

---

(١) سفر التثنية ٣٤ : ١٠ - ١٢ (٢) سفر التكوين ٢٥ : ١٧ - ١٨

(٣) أعمال الرسل ٣: ١٩ - ٢٣

زمن عيسى نفسه ما كان يعبر بقوله : « حتى إذا تأتى » . ثم يقول : « إن عيسى ستظل دعوته إلى الزمان الذى يسترد فيه كل شئ » - أى الزمان الذى تنتقل فيه الشريعة إلى بنى إسماعيل . كما قال موسى والأنبياء : « يرسل لكم الرب إلهكم نبياً من إخوتكم » ... إلخ .

وقول بطرس : « ويرسل يسوع المسيح المبشَّرَ به لكم » ، قيل : يشبه قول المسيح لتلاميذه عن نبى الإسلام : « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعَزِّياً » ، ثم يقول عن المُعزَّى : « ومتى جاء المُعزَّى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب ، روح الحق » .. إلخ .

ويقول الأستاذ إبراهيم خليل أحمد (القس إبراهيم خليل فيلبس سابقاً) : « هذه النبوءة حفظها الله من التحريف وظنها أحبار اليهود ورجال اللاهوت المسيحيون أنها تنطبق على يسوع المسيح رجاء اليهود وأملهم . وارتآها بطرس وظن أنها تنطبق على يسوع المسيح فقال فى خطابه فى رواق سليمان : « فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب . وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام . أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذى عاهد به الله آباءنا قائلاً لإبراهيم : وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض »[1] .

والمتأمل فى النص يجد أنه يقرر أن النبى المبشَّر به سيكون من « إخوتهم » وليس منهم ، والمراد بذلك أبناء عمومتهم ، والرسول ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام ، والنص يقرر أن هذا النبى سيكون « مثل » موسى عليه السلام ، والرسول ﷺ صاحب شريعة ، وُلِد من أبوين ، وتزوج ، وأنجب بنين وبنات ، ومات ميتة طبيعية ، ودُفِن فى الأرض مثل موسى تماماً . والنص يقول : « وأجعل كلامى فى فمه » أى التلقين . وسبق أن تنبأ أشعياء عن ذلك النبى

---

(١) أعمال الرسل ٣ : ٢٢ - ٢٥

الأمى بقوله : « وصارت لكم رؤيا الكل مثل كلام السفر المختوم الذى يدفعونه لعارف الكتابة قائلين : اقرأ هذا ، فيقول : لا أستطيع لأنه مختوم ، أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له : اقرأ هذا ، فيقول : لا أعرف الكتابة » (١) .

هذا فى حين أن المسيح عليه السلام من نسل هارون - أى أنه منهم وليس من أبناء إخوتهم ، ولم يأت بشريعة جديدة ، وولد من أم ولم يولد من أم وأب ، ولم يتزوج أو ينجب ، ولم يُدفن فى الأرض ، فالنص ينطبق على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ولا ينطبق على المسيح عليه السلام .

*

(هـ) فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر التثنية : « فرأى الرب ورذل من الغيظ . بنيه وبناته . وقال : أحجب وجهى عنهم وأنظر ماذا تكون آخرتهم . إنهم جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم . هم أغاروني بما ليس إلهاً ، أغاظونى بأباطيلهم ، فأنا أغيرهم بما ليس شعباً . بأمة غبية أغيظهم » (٢) .

والمراد بالأمة الغبية التى سيغيظ الله بها اليهود - وذلك بسلب المُلك والنبوة منهم وإعطائهما لتلك الأمة الغبية - هى أمة بنى إسماعيل لأنهم أغبياء أميون لا يكتبون ولا يحسبون فى نظر اليهود ، ولهم بركة فقد قال الله عن إسماعيل : « ها أنا أباركه » .

(و) وفى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته . فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ فى جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم . فأحب الشعب ، جميع قديسيه فى يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك » (٣) .

---

(١) سفر أشعياء ٢٩ : ١١ - ١٢ ، وانظر : محاضرات فى مقارنة الأديان - مرجع سابق - ص ٤٥ بتصرف .

(٢) سفر التثنية ٣٢ : ١٩ - ٢١

(٣) سفر التثنية ٣٢ : ١ - ٣

والمعنى العام : لقد أنزل اللّه التوراة على موسى فى طور سيناء ، وعلماء بنى إسرائيل من ذرية هارون عليه السلام الذين استحفظوا على كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء ، كانوا يعيشون حول جبل ساعير فى أرض فلسطين ، ومنهم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الذى آتاه اللّه الإنجيل فيه هدى ونور ، وأنزل اللّه القرآن على نبى الإسلام صلى اللّه عليه وسلم فى منطقة « فاران » . وفى مجئ نبى الإسلام كان معه جماعات من أصحابه الأطهار يحملون شريعة اللّه لليهود المخاطبين بهذه العبارات .

ثم يتحدث اللّه تعالى عن نبى الإسلام خاصة فيقول : جميع الذين رضيت عنهم ، وهم علماء أمتك الذين اخترتهم أزلاً لنصرتك ، هم معك ، فيسمعون ويطيعون ، وهم جالسون أمامك ، يقتبسون من كلماتك ، ليعلّموا الناس فى كل زمان ومكان ما شرعته لهم .

والدليل على أن المراد بـ « فاران » شريعة نبى الإسلام صلى اللّه عليه وسلم : أن لإسماعيل بركة وقد سكن فاران : ففى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين : « ونادى ملاك اللّه هاجر من السماء وقال لها : مالك يا هاجر ؟ لا تخافى لأن اللّه قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح اللّه عينيها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماءً وسقت الغلام ، وكان اللّه مع الغلام فكبر . وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر »[1] .

* * *

● وفى واقعة إسلام سلمان الفارسى رضى اللّه عنه دلالة قوية على أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يعلمون بقرب مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سفر التكوين ٢١ : ١٧ - ٢١

وانظر : السيرة النبوية ، لابن هشام ، مرجع سابق ، هامش : ١/ ١٣٠ - ١٣٣

فعن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، عن محمود بن لبيد ، عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى سلمان الفارسى وأنا أسمع من فيه ، قال : « كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من قرية يقال لها « جى » ، وكان أبى دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنت قطن النار الذى يوقدها ، لا يتركها تخبو ساعة .

قال : وكان لأبى ضيعة عظيمة ، فشغل في بنيان له يوماً ، فقال لى : يابنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحتبس عنى فإنك أن احتبستَ عنى كنت أهم إلىّ من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شئ من أمرى .

قال : فخرجتُ أريد ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، لحبس أبى إياى فى بيته ، فلما سمعتُ أصواتهم دخلتُ عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركتُ ضيعة أبى فلم آتها ، ثم قلت لهم : أينَ أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . فرجعتُ إلى أبى ، وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله .

فلما جئته قال : أى بُنىّ ، أين كنت ؟ أوَ لم أكن عهدتُ إليك ما عهدت ؟ قال : قلت له : يا أبت ، مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أى بُنىّ ، ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، قال : قلت له : كلا والله ، إنه لخير من ديننا . قال : فخافنى ، فجعل فى رجلى قيداً ، ثم حبسنى فى بيته .

قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم .

قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم . قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيتُ الحديد من رجلى ، ثم خرجتُ معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : مَن أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة .

قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببتُ أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك ، فأتعلم منك وأصلى معك . قال : ادخل ، فدخلت معه .

قال : وكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق . قال : فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قال : فقالوا لى : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملؤة ذهباً وورِقاً . قال : فلما رأوها قالوا : واللّهِ لا ندفنه أبداً ، قال : فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه .

يقول سلمان : فما رأيتُ رجلاً لا يصلى الخمس [1] ، أرى أنه كان أفضل منه أزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه . قال : فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله ، قال : فأقمتُ معه زماناً طويلاً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إنى قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر اللّه تعالى ، فإلى مَن توصى بى ؟ وبِمَ تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، واللّهِ ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، فقد

---

(١) أى من غير المسلمين .

هلك الناس ، وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان ، وهو على ما كنتُ عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره ، فقال لى : أقم عندى ، فأقمتُ عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر اللّه ما ترى ، فإلى مَن توصى به ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : يا بنى ، واللّهِ ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه ، إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبى ، فقال : أقم عندى ، فأقمتُ عنده ، فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فواللّهِ ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى مَن توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : يا بنى ، واللّهِ ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على أمرنا .

فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب عمورية ، فأخبرته خبرى فقال : أقم عندى . فأقمتُ عند خير رجل ، على هدى أصحابه وأمرهم .

قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة . قال : ثم نزل به أمر اللّه تعالى ، فلما حضر قلت له : يا فلان ، إنى كنت مع فلان ، فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى مَن توصى بى ؟ وبِمَ تأمرنى ؟

قال : « أى بُنىّ ، واللّهِ ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين إبراهيم

عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرّتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل من الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » .

قال : « ثم مات وغُيِّب ، ومكثتُ بعمورية ما شاء اللّه أن أمكث ، ثم مرّ بى نفر من « كلب » تجار ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيماتى هذه ، قالوا : نعم ، فأعطيتموها وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ، ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى ، ولم يحق فى نفسى ، فبيّنا أنا عنده ، إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فابتاعنى منه ، فاحتملنى إلى المدينة ، فواللّهِ ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى ، فأقمتُ بها .

وبُعث رسول اللّه ﷺ ، فأقام بمكة ما أقام ، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فواللّه إنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل له فيه بعض العمل ، وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه ، فقال : يا فلان ، قاتل اللّه بنى قيلة ، واللّهِ إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبى .

قال : فلما سمعتها أخذتنى العروراء [1] حتى ظننتُ أنى سأسقط على سيدى ، فنزلتُ عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك ، قال : قلت : لا شئ ، إنما أردتُ أن أستثبته عما قال .

قال : وكان عندى شئ قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول اللّه ﷺ وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ،

---

(١) العروراء : الرعدة من البرد والانتفاض ، وإن كان ذلك مع عَرَق فهى الرحضاء .

ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شئ قد كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم . قال : فقرّبته إليه فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « كلوا » ، وأمسك يده فلم يأكل . قال : فقلت فى نفسى : هذه واحدة .

قال : ثم انصرفت عنه ، فجمعت شيئاً ، وتحوّل رسول اللّه ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته به فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها . قال : فأكل رسول اللّه ﷺ منها ، وأمر أصحابه فأكلوا معه . قال : فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان .

قال : ثم جئت رسول اللّه ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه ، علىّ شملتان لى ، وهو جالس فى أصحابه ، فسلمتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ، فلما رآنى رسول اللّه ﷺ استدبرته عرف أنى أستثبت فى شئ وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أُقَبِّله وأبكى ، فقال لى رسول اللّه ﷺ : « تحول » . فتحولتُ فجلست بين يديه ، فقصصتُ عليه حديثى كما حدثتك يابن عباس ، فأعجب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللّه ﷺ بدر وأُحد .

قال سلمان : ثم قال لى رسول اللّه ﷺ : « كاتب يا سلمان » ، فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير ، وأربعين أوقية . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه : « أعينوا أخاكم » فأعانونى بالنخل ، الرجل بثلاثين ودية ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية ، والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لى ثلاثمائة ودية . فقال لى رسول اللّه ﷺ : « اذهب يا سلمان ففقر لها ، فإذا فرغتَ فائتنى أكن أنا أضعها بيدى . قال : ففقرتُ وأعاننى أصحابى ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته ،

فخرج رسول الله ﷺ معى إليها ، فجعلنا نقرب إليه الودى ، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، حتى فرغنا . فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة .

قال : فأديتُ النخل وبقى علىّ المال . فأُتِىَ رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب ، من بعض المعادن ، فقال : « ما فعل الفارسى المكاتِب » ؟ قال : فدعيتُ له فقال : « خذ هذه ، فأدها مما عليك يا سلمان » ، قال : قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله مما علىّ ؟ فقال : « خذها ، فإن الله سيؤدى بها عنك » .

قال : فأخذتها فوزنت لهم منها - والذى نفس سلمان بيده - أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم منها ، وعتق سلمان . فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخندق حراً ، ثم لم يفتنى معه مشهد »[1] .

وعن يزيد بن أبى حبيب ، عن رجل من عبد القيس عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : لما قلت : وأين تقع هذه من الذى علىّ يا رسول الله ؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلبها على لسانه ثم قال : « خذها فأوفهم منها » ، فأخذتها ، فأوفيتهم منها حقهم كله ، أربعين أوقية .

وفى رواية أخرى عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : حدثنى مَن لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان قال : « حُدِّثت عن سلمان الفارسى ، أنه قال لرسول الله ﷺ ، حين أخبره خبره : إن صاحب عمورية قال له : ائت كذا وكذا من أرض الشام ، فإن بها رجلاً بين غيضتين ، يخرج فى كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً ، يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى ، فاسأله عن هذا الدين الذى تبتغى ، فهو يخبرك عنه .

---

(١) انظر السيرة النبوية ، لابن هشام - مرجع سابق - : ١٣٣/١ وما بعدها .

قال سلمان : فخرجتُ حتى أتيتُ حيث وصف لى ، فوجدت الناس قد اجتمعوا برضاهم هنالك ، حتى خرج لهم تلك الليلة ، مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس برضاهم ، لا يدعو لمريض إلا شفى ، وغلبونى عليه فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخل إلى منكبه . قال : فتناولته فقال : مَن هذا ؟ والتفت إلىّ ، فقلت : يرحمك اللّه ، أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم ، قال : إنك لتسأل عن شئ ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبى يُبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأته فهو يحملك عليه . قال : ثم دخل .

قال : فقال رسول اللّه ﷺ لسلمان : « لئن كنتَ صدقتنى يا سلمان ، لقد لقيتَ عيسى ابن مريم » - على نبينا وعليه السلام » [1] .

* *

● كما أعلن هرقل عظيم الروم البشارة صريحة بنبى الإسلام صلى اللّه عليه وسلم ، وأن مبعثه كان معلوماً عند أهل الكتاب .

فعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام فى المدة [2] التى كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم .

ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً . فقال : أدنوه منى وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذَبنى فكذِّبوه ، . فواللّه لولا الحياء من أن يأثروا علىّ كذباً لكذبتُ عنه .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ (٢) أى مدة الصلح بالحديبية .

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

يقول أبو سفيان : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : بماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا اللّه وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه مَن ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه مَن ملك قلت رجل يطلب مُلك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرتَ أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرُسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرتَ أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرتَ أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

« فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمه » .

ثم دعا بكتاب رسول اللّه ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه :

« بسم اللّه الرحمن الرحيم ..

من محمد عبد اللّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على مَن اتبّع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين ، فإن توليتَ فإن عليك إثم الآريسيين . و ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخْرِجنا ، فقلت لأصحابى حين أُخْرِجنا : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلتُ مؤمناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام » (٢) .

● وكان ابن الناظور - صاحب إيلياء (٣) وهرقل - أسقفاً على نصارى الشام ، يُحدِّث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس (٤) ، فقال بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك .

قال ابن الناظور : وكان هرقل حزَّاءً (٥) ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟

قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا مَن فيهم من اليهود .

فبينما هم على أمرهم أُتِىَ هرقل برجل أرسل به ملك غسان ، يخبر من خبر رسول الله ﷺ . فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ ، فنظروا إليه فحدَّثوه أنه مختتن .

وسأله عن العرب ، فقال : هم يختتنون . فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية ، وكان نظيره فى العلم ، وسار

---

(١) آل عمران : ٦٤

(٢) رواه البخارى ، باب « كيف كان الوحى إلى رسول الله ﷺ » : ١/٥

(٣) إيلياء : أى بيت المقدس .

(٤) خبيث النفس : أى مهموماً .

(٥) الحزَّاء : الكاهن .

هرقل إلى حمص ، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ ، وأنه نبى . فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة [1] له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : « يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى » ؟

فحاصوا [2] حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم علىّ ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيتها . فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل [3] .

ويقول النووى : « قوله حزاء - بالمهملة وتشديد الزاى آخره همزة منونة - أى كاهناً ، يقال : حزا - بالتخفيف يحز ، وحذوا : أى تكهن . وقوله : ينظر فى النجوم - إن جعلتها خبراً ثانياً صح لأنه كان ينظر فى الأمرين ، وإن جعلتها تفسيراً للأول فالكهانة تارة تستند إلى إلقاء الشياطين ، وتارة تستفاد من أحكام النجوم ، وكان كل من الأمرين فى الجاهلية شائعاً ذائعاً ، إلى أن أظهر الله الإسلام فانكسرت شوكتهم وأنكر الشرع الاعتماد عليهم ، وكان ما اطلع عليه هرقل من ذلك بمقتضى حساب المنجمين أنهم زعموا أن المولد النبوى كان بقران العلويين ببرج العقرب ، وهما يقترنان فى كل عشرين سنة مرة إلى أن تستوفى المثلثة بروجها فى ستين سنة ، فكان ابتداء العشرين الأولى المولد النبوى فى القران المذكور ، وعند تمام العشرين الثانية مجئ جبريل بالوحى ، وعند تمام الثالثة فتح خيبر وعمرة القضية التى جرّت فتح مكة وظهور الإسلام ، وفى تلك الأيام رأى هرقل ما رأى .

---

(١) الدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهى يكون للملوك ، والجمع : دساكر .

(٢) حاصوا : أى نفروا .

(٣) رواه البخارى عن صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهرى : ١/٥

ومن جملة ما ذكروه أيضاً أن برج العقرب مائى ، وهو دليل ملك القوم الذين يختتنون ، فكان ذلك دليلاً على انتقال المُلك إلى العرب ، وأما اليهود فليسوا مراداً هنا لأن هذا لم ينقل إليه الملك إلا لمن انقضى ملكه .

فإن قيل : كيف ساغ للبخارى إيراد هذا الخبر المشعر بتقوية أمر المنجمين والاعتماد على ما تدل عليه أحكامهم ؟

فالجواب : أنه لم يقصد ذلك ، بل قصد أن يبين أن الإشارات بالنبى ﷺ جاءت من كل طريق وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم ، محق أو مبطل ، إنسى أو جنى .. وهذا من أبدع ما يشير إليه عالِم أو يجنح إليه محتج .

وقد قيل : إن الحزّاء هو الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه فيحكم على صاحبها بطريق الفراسة ، وهذا إن ثبت فلا يلزم منه حصره فى ذلك ، بل اللائق فى حق هرقل ما تقدم »[1] .

* * *

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - للنووى : ٥٤/١